

موقف الفيلسوف ابن سينا من النبوة والأنبياء

عرض ونقض

الدكتور: صالح حسين الرقب

أستاذ مشارك - قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية أصول الدين - الجامعة الإسلامية

غزة - فلسطين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله. وبعد...

فيعدّ الفيلسوف الشيخ الرئيس الحسين بن عبد الله بن سينا أحد كبار الفلاسفة الإسلاميين الذين درسوا الفلسفة اليونانية وتأثروا بها إلى حدّ كبير، بل واعتمدها موضوعاً ومنهجاً، وتعصّبوا لكبار الفلاسفة اليونان أمثال أرسطو، وأفلاطون، وأفلوطين، واستبدل هؤلاء الفلاسفة الوحي بالعقل المجرد، وزعموا أنّ العقل وحده يعطي حقائق الأشياء، أما الوحي فيعطي عنها تخيلاً وتمثيلاً. ولقد حاول ابن سينا التوفيق بين الفلسفة والدين في المسائل الاعتقادية، ولكنه لم يستطع، لأنّه يستحيل التوفيق بين العقيدة الربانية الثابتة بالوحي، والفلسفة الوثنية التي تعتمد على التأمل العقلي المجرد والرأي والهوى والخيال، وهي من نتاج الفكر البشري المحدود. ومن هنا وقع ابن سينا في مجموع من المتناقضات والأغاليط، لقد أوقعته فلسفته في الخروج الصريح عن الدين الإسلامي، ممّا جعل جمع من أهل العلم يذهبون إلى تكفيره، والحكم عليه بالزندقة والإلحاد.

وفي اعتقادي أنّ المسلم اليوم بحاجة ماسّة إلى تقويم منهج هؤلاء الفلاسفة - ومنهم ابن سينا - وتمحيص أفكارهم، وكشف باطلها وآثارها السلبية. خاصة إذا علمنا أنّ لهؤلاء مكانة في كثير من الجامعات والمعاهد العلمية في بعض دول العالم الإسلامي. وأنّ نتاجهم العلمي ما زال مكان الصدارة في تلك الجامعات والمعاهد.

إنّ عقيدة النبوة من القضايا الاعتقادية التي حاول ابن سينا أن يوفق فيها بين الفلسفة اليونانية والدين الإسلامي. فأحببت أن اكتب فيها بحثاً، أقف من خلاله على جهده في ذلك، ومن ثمّ نقده في ضوء مذهب أهل السنة والجماعة.

منهج البحث:-

اعتمد الباحث المنهج الوصفي والتحليلي، ثم النقدي، وذلك بجمع أقوال ابن سينا وآرائه في القضية موضع البحث، ثم محاولة تحليلها، ومناقشتها ونقدها، ومن ثمّ الوصول إلى النتائج المرجوة، ولقد تناولت في هذا البحث معظم مباحث النبوة، بيّنت فيها أقوال ابن سينا وآراءه، ثم ناقشته في ذلك، كاشفاً عمّا فيها من الفساد، ومبيناً الاعتقاد الحق المستفاد من الكتاب والسنة، معتمداً على الأدلة الشرعية الصحيحة، وعلى أقوال علماء أهل السنة والجماعة.

وقد قسّمت البحث إلى مقدمة وتمهيد، وتسعة مطالب، وخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي استخلصتها من هذا البحث.

مصادر البحث:- اعتمد الباحث على مؤلفات ابن سينا، ومؤلفات علماء السلف، وغيرها من المصادر المتوفرة بين يديه.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا الجهد المتواضع خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به إخواننا المسلمين... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين....والله نسأل السداد والتوفيق.

تمهيد: التعريف بالفيلسوف ابن سينا:

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، ينتمي إلى الطائفة الإسماعيلية ذكر يحيى بن أحمد الكاشي قول ابن سينا عن نفسه فقال: "وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين ويعدّ من الإسماعيلية، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم وكذلك أخي، وكانوا ربّما تذكروا ذلك وأنا أسمع وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي وابتدءوا يدعونني إليه".^(١) كان ابن سينا عالماً وفيلسوفاً وطبيباً وشاعراً ولُقّب بالشيخ الرئيس والمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، كما عرف بأمرير الأطباء وأرسطو الإسلام، ولد ابن سينا في قرية (أفشنة) الفارسية في صفر من سنة ٣٧٠ هـ. ثم انتقل به أهله إلى بخارى، وفيها تعمّق في العلوم المتنوعة من فقه وفلسفة وطب، وبقي في تلك المدينة حتى بلوغه العشرين. ثم انتقل إلى خوارزم، حيث مكث نحواً من عشر سنوات (٣٩٢-٤٠٢ هـ)، ومنها إلى جرجان، فإلى الرّي. وبعد ذلك رحل إلى همذان وبقي فيها تسع سنوات، ومن ثم دخل في خدمة علاء الدولة بأصفهان. وهكذا أمضى حياته متنقلاً حتى وفاته في همذان، في شهر شعبان سنة ٤٢٨ هـ.

ومن أساتذته: أبو بكر أحمد بن محمد البرقي الخوارزمي، وقد تلقى على يديه علوم اللغة، ودرس الفقه على يد أستاذه إسماعيل الزاهد، وعلوم الفلسفة والمنطق على أبي عبد الله الناطلي، وتتلّمذ ابن سينا على كتب الفيلسوف أبي نصر الفارابي، وكتب الفيلسوف اليوناني أرسطو.

(١) في رسالته: نكت في أحوال الشيخ الرئيس ابن سينا، تحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، منشورات المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٥٢م ص ١٠.

أما مؤلفاته فكثيرة، ومنها: ١- الشفاء في أربعة أقسام هي: المنطق، الرياضيات، الطبيعيات، الإلهيات
٢- النجاة ٣- الإشارات و التنبيهات ٤- القانون في الطب ٤- منطق المشرفين ٥- رسالة في ماهية
العشق ٦- أسباب حدوث الحروف ٧- مجموعة من الرسائل منها: رسالة في الحدود، رسالة في أقسام
العلوم العقلية، رسالة في إثبات النبوات ٨- رسالة حي بن يقظان ٩- رسالة أضحوية في أمر المعاد.

وقد كثر جمع من أهل العلم ابن سينا، بل حكم عليه بعضهم بالزندقة والإلحاد، ومن هؤلاء: أبو
حامد الغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، لقوله بعدة عقائد فاسدة منها: قدم
العالم، وعدم علم الله تعالى بالجزئيات، وإنكاره البعث الجسماني.(١)

وأما أصل فلسفته: فيقول ابن تيمية: "وابن سينا تكلم في أشياء من الإلهيات والنبوات والمعاد والشرائع لم
يتكلم فيها سلفه ولا وصلت إليها عقولهم ولا بلغتها علومهم، فإنه استقارها من المسلمين، وإن كان إنما
أخذ عن الملاحدة المنتسبين إلى المسلمين كالإسماعيلية، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم من أتباع
الحاكم العبيدي، الذي كان هو أهل بيته وأتباعه معروفين عند المسلمين بالإلحاد، أحسن ما يظهرونه
دين الرفض، وهم في الباطن يبطنون الكفر المحض".(٢) ويقول: "وابن سينا لما عرف شيئاً من دين
المسلمين وكان قد تلقى ما تلقاه عن الملاحدة، وعمن هو خير منهم من المعتزلة والرافضة، أراد أن
يجمع بين ما عرفه بعقله من هؤلاء، وبين ما أخذه من سلفه، فتكلم في الفلسفة بكلام مركب من كلام
سلفه ومما أحدثه، مثل كلامه في النبوات وأسرار الآيات والمنامات، بل وكلامه في بعض الطبيعيات
والمنطقيات... فابن سينا أصلح تلك الفلسفة الفاسدة بعض إصلاح، حتى راجت على من لم يعرف دين
الإسلام من الطلبة النظار، وصاروا يظهر لهم بعض ما فيها من التناقض".(٣)

ويقول عبد الرحمن بن خلدون: "ثم كان بعده- أرسطو- في الإسلام من أخذ بتلك المذاهب
واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل، وذلك أن كتب أولئك المتقدمين.. تصفحها كثير من أهل
الملة (الإسلام) وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من منتحلي العلوم، وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من
تقاربعها، وكان من أشهرهم: أبو نصر الفارابي وأبو علي ابن سينا".(٤)

المطلب الأول: تعريف الرسول والرسالة :

الرسالة: يعرف ابن سينا الرسالة بقوله: "هي ما قبِل من الإفاضة المسماة وحياً على أي عبارة استصوبت
لصالح عالمي البقاء والفساد علماً وسياسة".

(٢) انظر ترجمته: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، مكتبة الحياة- بيروت- ١٩٦٥م ص ٤٣٧-٤٥٩،
تاريخ الحكماء: ابن الفقي، طبعة ليبزج، ألمانيا ١٩٠٣م ص وما بعدها ٤١٣، ظهير الدين البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام،
تحقيق محمد كرد علي، المجمع العلمي العربي- دمشق- مطبعة الترقى ١٩٤٦م ص ٥٢-٧٢.

(٣) الرد على المنطقيين: أحمد ابن تيمية، إدارة ترجمان السنة-لاهور، باكستان- ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م، ص ١٤١-١٤٢
مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن محمد بن قاسم، مكتبة النهضة الحديثة- مكة
١٣٣/٩.

(٤) الرد على المنطقيين ص ١٤٤-١٤٥.

(٥) مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي- بيروت- ص ٥١٥.

الرسول: ويعرّف الرسول بقوله: هو "المبلغ ما استقاد من الإفاضة المسماة وحياً على عبارة استصوبت ليحصل بآرائه صلاح العالم الحي بالسياسة، والعالم العقلي بالعلم".^(٦) والمراد بالإفاضة في قول ابن سينا: ما فاض على نفس النبي من المعاني من العقل الفعّال،^(٧) -وهو الملك جبريل- ثم فاض من ذلك العقل على النفس الناطقة الزكية المستعدة لذلك.

المناقشة:

إنّ الفرق المشهور- عند العلماء- بين النبي والرسول، أنّ الرسول من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه^(٨)، ولكن هذا الفرق لا يسلم من إشكال، لأنّ النبي مرسل ومأمور بالدعوة والتبليغ، قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) سورة الحج: ٥٢، لذا ذهب بعض العلماء إلى أنّ الرسول: من أوحى إليه بشرع جديد، والنبي: هو المبعوث لتقرير شرع من قبله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الصواب أنّ الرسول هو من أرسل إلى قوم كفار مكذّبين، والنبي من أرسل إلى قوم مؤمنين بشريعة رسول قبله يعلمهم ويحكم بينهم، كما قال تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا النُّورَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً) سورة المائدة: ٤٤، فأنباء بني إسرائيل يحكمون بالتوراة التي أنزل الله على موسى عليه السلام.^(٩) وما ذكره ابن سينا مبني على أصوله الفلسفية، التي لا يسلم بها علماء الإسلام. وهناك مناقشة لابن سينا في معنى الوحي، فيما يأتي من البحث.

وأما زعمه أنّ ذلك فيض فاض من العقل على نفس النبي، فيردّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: إنّ هذا ليس من مقالات أهل الملل لا سنيهم ولا بدعيهم، لكن من مقالات الصابئة المتفلسفة الذين ليس عندهم في الحقيقة لله كلام، ولا ملائكة تنزل بكلامه، ولا عندهم تمييز بين موسى وهارون- عليهما السلام- ولا بينهما وبين عدو الله فرعون.^(١٠) وقد بناه ابن سينا على أصله الفاسد إذ كان لا يرى أنّ الله

^(٦) رسالة في إثبات النبوات وتأويل رموزهم - ضمن مجموعة تسع رسائل في الحكمة - لابن سينا - مطبعة هندية- مصر - ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م، ص ١٢٤.

^(٧) العقل الفعّال عند الفلاسفة: هو جوهر بسيط مجرد من المادة وعلائقها، المخرج لنفوس الأدميين في العلوم من القوة إلى الفعل، ونسبته إلى المعقولات والقوة العاقلة، نسبة الشمس إلى المبصرات والقوة الباصرة، إذ بها يخرج الإبصار من القوة إلى الفعل. انظر معيار العلم: أبو حامد الغزالي: تحقيق د. سليمان دنيا، دار المعارف بالقاهرة ص ٢٨٩، المعجم الفلسفي: د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٧٣م ٨٤/٢-٨٥.

^(٨) انظر شرح العقيدة الطحاوية على بن علي بن أبي العزّ الدمشقي الحنفي، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه الدكتور عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م ٢/ ٤١١-٤١٢، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرّة المضوية في عقيدة الفرقة المرضية: محمد بن أحمد السفاريني، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة أسامة، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م ٤٩/١

^(٩) انظر النبوات: ابن تيمية، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، دار الكتاب العربي- بيروت- ص ١٨١-١٨٢.

^(١٠) انظر بغية المرئاد ٣٨٤/١.

يسمع كلام عباده، ولا يعلم ما في نفوسهم، ولا يقدر أن يغيّر شيئاً من العالم، ولا له مشيئة يفعل بها من يشاء.^(١١) ومن قال مثل هذا الكلام يعلم بالاضطرار أنه يكذب على القرآن الكريم الذي أخبر بأن موسى عليه السلام سمع نداء الله تعالى له، وأنه كلمه دون واسطة في جبل طور سيناء، (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) مريم: ٥٢، (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) النساء: ١٦، وإخبار الرسول عن أمور الغيب يدل على نبوته، وهو يدل على أن النبوة إنباء من الله عز وجل، وليس ذلك مما يقوله ابن سينا من أنه فيض فاض عليه من العقل الفعّال. وهو لازم لقول من جعل كلام الله معنى مجرداً، وإذا كان اللزوم معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام علم فساد اللازم الذي زعمه.^(١٢)

إنّ قوله تعالى: (فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) البقرة: ٩٧، وقوله (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ) الأنعام: من الآية ١١٤، يفيد أنّ التنزيل من الله تعالى، وهو يدل على بطلان قول ابن سينا الذي يجعل الرسالة فيض فاض على نفس النبي من العقل الفعّال، وهذا القول من أعظم الكفر والضلال،^(١٣) وقوله بالفيز يعني عدم إثبات حقيقة الرسالة، والنبوة عنده فيض من جنس المنامات، وهذا الجنس موجود لعموم الناس، ويشترك فيه المسلمون والكفار من المشركين وأهل الكتاب فأى ميزة أو فضل للأنبياء؟؟

المطلب الثاني: معنى الوحي عنده:

والوحي عند ابن سينا مرتبط بمعنى الرسول والنبي، ويفسره بأنه: "إفاضة العقل الكلي على نفس النبي الذي ينتهي إليه التفاضل في الصور المادية، وفيضان العلوم منه على لوح قلب النبي بواسطة العقل الفعّال".^(١٤)

ويعرّف ابن سينا الوحي - في رسالة له بعنوان (الفعل والانفعال)،^(١٥) بقوله: "إلقاء الخفي من الأمر العقلي بإذن الله تعالى في النفوس البشرية المستعدة لقبول هذا الإلقاء. إمّا في حالة اليقظة ويسمى الوحي، وإمّا في حالة النوم ويسمى النفث في الروح". ولإيضاح كيفية الوحي يقول ابن سينا: إنّ النبي بما له من قوة قدسية يستطيع أن يتصل بالملك، ولأنّ الملك عقل مجرد، والعقل لا يستطيع أن يدرك الأشياء إلّا مجردة عن الزمان، فإنّ الوحي في هذه الحالة يكون عبارة عن إلقاء الشيء إلى النبي بلا زمان، وذلك بواسطة الملك، فتأتي قوة المخيلة في النبي فتتلقى هذا الغيب عن العقل الفعّال، وتتصوره بصورة الحروف والأشكال المختلفة. كما تتصور الملك بصورة بشرية. والنبي لا يصل إلى هذه الحالة إلا بعد استعداده وصفاء نفسه إلى درجة تجعلها أهلاً لذلك. ولتمييز كون الوحي قرآناً أو سنةً، لابد من التفريق بين العبارة

^(١١) الصفية ٢/٢٨٨.

^(١٢) انظر مجموع الفتاوى ٦/٥٤٠.

^(١٣) انظر المصدر السابق ١٢/١٢٠، ١٥/٢٢٢.

^(١٤) المصدر السابق ص ١٢٣-١٢٤.

^(١٥) نقل عن ابن سينا بين الفلسفة والدين: الدكتور حمودة غرابه، مجمع البحوث الإسلامية-القاهرة-١٣٩٢هـ-١٩٧٢م

هامش ص ١٣٣.

المقارنة لتصور قوة المخيلة- في النَّبي- في العلم بصورة الحروف والأشكال، وبين العبارة النقشية التي يصوغها النَّبي بعد ذلك يقول ابن سينا في ذلك: "وكلما عبر-أي النَّبي- بعبارة قد اقترنت بنفس التصور فذلك هو آيات الكتاب، وكلما عبر عنه بعبارة نقشية فذلك هو إخبار النبوة".^(١٦)

إنَّ ابن سينا يصرِّح هنا بأنَّ عبارات الوحي ما هي إلا ألفاظ استصوبها الرسول للتعبير بها عما أوحى إليه ، أي أنَّ الرسول قد تلقى بالفيض عن العقل الفعَّال معانٍ عبَّر عنها بألفاظ من عنده، وهذا الكلام مناقض للنصوص القرآنية، قال الله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ سورة النجم ٣-٤.^(١٧)

وإذا كان النَّبي يرى الملائكة ويسمع كلام الله بواسطتهم، فإنَّ ابن سينا يزعم: أنَّ الملائكة هي ما يتخيل في نفسه من الخيالات النورانية، وكلام الله هو ما يسمعه في نفسه من الأصوات، وهو بمنزلة ما يراه النَّائم في منامه.^(١٨) وسيأتي مزيد إيضاح لأقوال ابن سينا في مسألة كلام الله تعالى والملائكة في بقية هذا البحث.

ويلاحظ في أقوال ابن سينا السابقة مدى تأثره بنظرية الفيض الأفلاطونية،^(١٩) ومدى محاولته التوفيق بينها وبين الدين، وهي محاولة لم يكتب لها النجاح كما هو واضح. ونذكر هنا أنَّ نظرية الفيض عند ابن سينا تقول بوجود عشرة عقول، آخرها العقل الفعَّال^(٢٠): وهو يلزم عن العقل التاسع ووجوده لا في مادة، وهو يعقل ذاته ويعقل الأول - الذي هو الواحد الحق - لكن تنتهي عنده العقول والمعقولات، أي ينتهي الوجود الذي لا يحتاج ما يوجد ذلك الوجود إلى مادة وموضوع أصلاً، وعن هذا العقل تصدر مادة الأشياء الأرضية، والصور الجنسية، والنفوس الإنسانية، ويصل العالم العلوي بالعالم السفلي، وهو المسمى بالروح

^(١٦) الرسالة العرشية: ابن سينا ص ١٢.

^(١٧) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد لابن تيمية - مكتبة العلوم والحكم - الرياض - ط ٣ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م - مقدمة المحقق د. موسى الدويش ص ٧٢ .

^(١٨) الرد على المنطقيين ص ٢٧٧.

^(١٩) وملخص هذه النظرية: أنَّ الموجودات صدرت عن الأول على هيئة فيض، بتوسط العقل الأول الصادر عنه مع بقية العقول التي صدرت بعضها عن بعض، وأنَّ الأول -الذي هو الواحد الحق- يفع بعض أفعاله بذاته، وبعضها بتوسط أشياء، وأنَّ هناك خمس مراتب للموجودات، وهي: ١- الأول الواحد من كل جهة، وقد واحد محض بسيط لا كثرة فيه، وهو فوق التمام والكمال. ٢- العقل: وهو من إبداع الأول، وقد صدر عنه من غير واسطة، وبعد أن أبدع الأول العقل النقت هذا العقل إلى الأول مبدعه، فوقع بصره عليه فامتأ منه نوراً وبهاءً، فأفاض الأول عليه قوى كثيرة، ثم صدرت عن الأول جميع الأشياء التي في العالم العلوي والسفلي، ولكن بتوسط العقل- الصادر عنه من غير توسط- والعالم العقلي. ٣- النفس الكلية: وقد صدرت عن العقل الأول لما صار قوة عظيمة. وهي أقل مرتبة من العقل، لأنها مبدعة عنه، وفي الإبداع نقصان. ٤- الطبيعة: وقد صدرت عن النفس الكلية لما تحركت علواً نحو علتها فامتألت نوراً وقوة، وتحركت سفلاً، فكان صدور الطبيعة عنها. ٥- الأشياء الواقعة تحت الكون والفساد: وهي العالم السفلي بما فيه من النبات والحيوان والجماد. وهي آخر الأشياء صدوراً وأدناها مرتبة، وقد صدرت بتوسط الطبيعة. انظر: عبد الحمن بدوي: أفلوطين عند العرب، مكتبة النهضة، الطبعة الثانية ١٩٦٦م، الميمرالأول ص ٦، الميمرالعاشر ص ١٣٤ وما بعدها، عبد الفتاح أحمد فؤاد: ابن تيمية وموقفه من الفكر السلفي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع- الإسكندرية- الطبعة الثانية ١٩٨٧م ص ١٨٧-١٨٨.

^(٢٠) سبق التعريف به ص ٤.

القدس أو بالروح الأمين، ومنه يفيض الوحي والعلم على الأنبياء.^(٢١) وستعرض لمناقشة ابن سينا في معنى الوحي الذي ذهب إليه أثناء مناقشتنا لصفة الكلام، وذلك في المطلب السادس.

المطلب الثالث: النبوة ضرورية وواجبة عند ابن سينا :

يذهب ابن سينا إلى ضرورة وجود النبي، وأن بعثة النبي واجبة عقلاً، يقول في ذلك: " فواجب إذاً أن يكون نبي، وواجب أن يكون إنساناً، وواجب أن تكون له خصوصية ليست لسائر الناس، حتى يستشعر الناس فيه أمراً لا يوجد لهم، فيتميز به عنهم، فتكون له المعجزات التي أخبر به".^(٢٢) ويقول أيضاً: " إنَّ النَّبِيَّ من عند الله، وإرسال الله، وواجب في الحكمة الإلهية إرساله، وأن جميع ما يسنه فإنما هو ما وجب من عند الله أن يسنّه، وإنما يسنّه من عند الله...".^(٢٣)

ويعدّ الفارابي أول الفلاسفة الإسلاميين القائلين بنظرية النبوة وضرورة النبي، وهو يعدّ النبوة وسيلة من وسائل الاتصال بين عالم الأرض وعالم السماء، وأنَّ النبي لازم لحياة المدينة الفاضلة من الناحيتين السياسية والأخلاقية .

والشروط التي يجب توافرها في النبي هي نفس الشروط اللازمة لرئيس المدينة الفاضلة، وهي: أن يكون سليم البنية، قوي الأعضاء تامّها، جيد الفهم والتصور، قوي الذاكرة، كبير الفطنة، وسريع البديهة، حسن العبارة، محباً للعلم وللاستفادة، وأن يكون صادقاً أميناً، ناصراً للعدالة، مجتنباً للملذات الحسية، غير شهِر على المأكول والمشروب والمنكوح، مبتعداً عن اللهو واللعب، وأن تكون أعراض الدنيا هينة عنده. وأن يسمو إلى درجة العقل الفعال الذي يستمد منه الوحي والإلهام.^(٢٤)

وأما ابن سينا فيربط بين العناية الإلهية والنبوة، فيقول: " فلا بدّ في وجود الإنسان وبقائه من مشاركة، ولا تتم المشاركة إلا بمعاملة، كما لا بدّ في ذلك من سائر الأسباب التي تكون له، ولا بدّ في المعاملة من سنة وعدل، ولا بدّ للسنة والعدل من سانّ ومعدّل، ولا بدّ أن يكون هذا بحيث يجوز أن يخاطب الناس ويلزمهم السنة، ولا بدّ من أن يكون هذا إنساناً".^(٢٥)

ووجود النبي - في نظر ابن سينا - أكثر حاجةً وأشدّ من وجود كثير من المنافع الدنيوية فوجوده أشدّ حاجةً من الحاجة إلى إنبات الشعر على الأشجار، وعلى الحاجبين، وتقدير الأخص من القدمين، وغيرها من المنافع التي لا ضرورة إليها في البقاء الإنساني، ووجود النبي تقتضيها العناية الإلهية، وليس

^(٢١) انظر نظرية الفيض التي قال بها ابن سينا في كتبه: النجاة ص ٢٧٤-٢٧٨، الهداية ص ٢٧٤-٢٧٨، للرسالة

النيروزية ص ٩٣-٩٤. أبو البركات البغدادي: المعتبر في الحكمة الإلهية ١٤٨/٢-١٥١، أبو حامد الغزالي: تهافت

الفلاسفة ١٤٣-١٤٦. عبد الفتاح أحمد فؤاد: ابن تيمية وموقفه من الفكر السلفي ١٨٧-١٩٠.

^(٢٢) النجاة لابن سينا، دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الأولى: ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م - تحقيق د. ماجد فخري ص ٣٣٩

^(٢٣) المصدر السابق ص ٣٤٣.

^(٢٤) آراء أهل المدينة الفاضلة: أبو نصر الفارابي، تصحيح عبد الوصيف محمد الكردي، مكتبة الحسين التجارية بمصر،

مطبعة حجازي بالقاهرة ص ٨٧ ، ٨٨،

(١٠) النجاة: ابن سينا - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط ١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ص ٣٣٩.

من المعقول أن تقتضي العناية وجود تلك المنافع وأمثالها التي لا ضرورة لها في البقاء، ولا تقتضي النبوة التي هي أسؤها، إذ لولا النبوة لما كان هناك بقاء للنوع الإنساني.^(٢٦)

فوجود النبوة واجب، وواجب أن يكون إنساناً، وله من الخصائص ما لغيره من الناس حتى يستشعر الناس فيه أمراً لا يوجد لهم، ويجب أن تكون له المعجزات التي أخبرنا بها.^(٢٧)

المناقشة:-

إن من الحق الذي ذهب إليه ابن سينا: أنّ وجود النبي أكثر حاجةً وأشدّ من وجود كثير من المنافع الدنيوية، وأشدّ حاجةً من الحاجة إلى إنبات الشعر على الأشفار، وعلى الحاجبين، وتعير الأخص من القدمين، وغيرها من المنافع التي لا ضرورة إليها في البقاء الإنساني، وهذا موافق لما ذكره أئمة أهل السنة في هذا الموضوع، ومن ذلك ما قاله ابن تيمية، قال: فإنّ الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه..، ثم ذكر ثلاثة أصول وهي: ١- إثبات الصفات والتوحيد والقدر وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصّها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم، ٢- وتقصيل الشرائع، والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه، ٣- الأيمان باليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب. ثم قال: "وعلى هذه الأصول الثلاثة، مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإنّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه، وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب، فإنّ آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأمّا إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا ترجى الحياة معه أبداً أو شقي".^(٢٨) وبيّن ابن قيم الجوزية أنّ الحاجة إلى علوم الرسل أعظم من الحاجة إلى الطب، فيقول: "حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية، فوق حاجتهم إلى كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها، ألا ترى أنّ أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة، وأمّا أهل البدو كلّهم وأهل الكفور كلّهم وعمامة بني آدم فلا يحتاجون إلى طبيب، وهم أصحّ أبداناً وأقوى طبيعةً ممّن هو متقيد بالطبيب، ولعلّ أعمارهم متقاربة، وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم، وجعل لكل قوم عادةً وعرفاً في استخراج ما يهجم عليهم من الأدوية، حتى أنّ كثيراً من أصول الطب إنّما أخذت عن عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم، وأمّا الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية، فمبناها على الوحي المحض، والحاجة إلى التنفس فضلاً عن الطعام والشراب، لأنّ غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن وتعطل الروح عنه، وأمّا ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة، وهلاك الأبدان، وشتان بين هذا، وهلاك البدن بالموت، فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى

^(٢٦) انظر المصدر السابق ص ٣٣٩.

^(٢٧) انظر المصدر السابق ص ٣٣٩.

^(٢٨) مجموع الفتاوي ١٩/٩٣-٩٦.

معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والقيام به، والدعوة إليه، والصبر عليه وجهاد من خرج عنه، حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسم".^(٢٩)

ويقال لابن سينا إن قولك: فوجود النبوة واجب، وأن بعثة النبي واجبة عقلاً، ممّا لا يقبل في حق الله تعالى، فالعباد لا يجوز لهم أن يوجبوا على الله شيء، أو يحرموا عليه شيء، فالوجوب يجب أن يعلم بالسمع، والله هو الذي يوجب على نفسه، قال تعالى: (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) الأنعام: من الآية ٥٤، وقال: (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) الروم: من الآية ٤٧. ولا يلزم من كونه تعالى أوجب على نفسه شيئاً أن يكون فاعلاً بالإيجاب، أي لا اختيار له، لأنّه سبحانه وتعالى أوجبه على نفسه باختياره ومشيئته، وأهل السنة والجماعة متفقون على أنّه تعالى خالق كل شيء وربّه ومليكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنّ العباد لا يوجبون عليه شيئاً، لمنافاته مشيئة الله واختياره المطلق في مخلوقاته، ولأنّ في ترك هذا النوع من الواجب إمّا حصول مضرّة أو فوات منفعة أو لزوم محال، والله تعالى ينتزه عن هذه كلها، لأنّه لا ينتفع بإرسال الرسل، ولا يتضرر بترك إرسالهم، ولا يلزم من عدم إرسالهم محال بالنسبة إليه سبحانه وتعالى.^(٣٠)

يقول ابن تيمية: "وقد اتفق العلماء على وجوب ما يجب بوعد الله الصادق، وتنازعو هل يوجب الله بنفسه على نفسه ويحرم بنفسه على نفسه على قولين، ومن جوز ذلك: احتج بقوله سبحانه كتب ربكم على نفسه الرحمة، وبقوله في الحديث القدسي الصحيح إني حرمت الظلم على نفسي الخ... وأما الإيجاب عليه سبحانه وتعالى والتحرّم بالقياس على خلقه، فهذا قول القدرية، وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول، وأهل السنة متفقون على أنّه سبحانه خالق كل شيء، وربه ومليكه، وأنّه ما شاء كان، وما شاء لم يكن، وأنّ العباد لا يوجبون عليه شيئاً، ولهذا كان من قال من أهل السنة بالوجوب قال: إنّه كتب على نفسه الرحمة، وحرّم الظلم على نفسه، لا أنّ العبد نفسه مستحق على الله شيئاً، كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإنّ الله هو المنعم على العباد بكل خير، فهو الخالق لهم، وهو المرسل إليهم الرسل، وهو الميسّر لهم الإيمان والعمل الصالح".^(٣١)

ويقول العلامة محمد بن أحمد السفاريني: "إنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع مئة من الله وفضل، لا واجب عليه ذلك، وإنّما هو على سبيل اللطف بالخلق والفضل عليهم، فبعثة الله جميع الرسل من آدم إلى محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين إلى المكلفين لطف من الله بهم ليلبغهم عنه سبحانه وتعالى أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ويبينوا لهم عنه سبحانه ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد...".^(٣٢)

وبعثة النبي وإرسال الرسل تفضل من الله ورحمة للعباد، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) الأنبياء: ١٠٧، (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) آل عمران: من الآية ١٦٤، وحتى لا يكون حجة للناس بأنّهم لم يبلغوا منهج الله وقال: (رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يُكُونَ

^(٢٩) مفتاح دار السعادة، مطبعة صبيح، القاهرة ٢/٢.

لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) النساء: ١٦٥، وقال: (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) طه: ١٣٤.

ومن المستنكر أن يقال أن إرسال الله تعالى رسله لعباده الذي فيه غاية صلاحهم وسعادتهم في الدنيا و الآخرة، ونهيه لهم عما فيه هلاكهم وشقاؤهم في الدنيا و الآخرة، واجب عقلاً!.

المطلب الرابع: النبوة مكتسبة :

زعم ابن سينا أن النبوة مكتسبة، فإن من راض نفسه، وخلصها من الأوصاف الذميمة إلى الأوصاف الحميدة، ولازم الخلوة والعبادة، ودوام المراقبة، وإخلاء نفسه من الشواغل العائقة عن المشاهدة. إن النبوة فيض يفيض على نفس النبي إذا استعدت لذلك. (٣٣) يقول ابن سينا: "ولنفسك أن تنتقش بنفس ذلك العالم- يقصد العالم العقل- بحسب الاستعداد، وزوال الحائل، قد علمت ذلك فلا تستنكرن أن يكون بعض الغيب ينتقش فيها من عالمه". (٣٤) ويقول ابن سينا: "وهذه القوة ربما كانت للنفس بحسب المزاج الأصلي، وقد تحصل بضرب من الكسب يجعل النفس لشدة الزكاة كما تحصل لأولياء الله الأبرار، والذي يقع له هذا في جبلة النفس ثم يكون خيراً رشيداً مزكياً لنفسه، فهو ذو معجزة من الأنبياء أو كرامة من الأولياء، وكلما زكى المرء نفسه، رقي في هذا الباب، وزاد على مقتضى جبلة إلى أن يبلغ المبلغ الأقصى". (٣٥)

المناقشة:

إن ما ذهب إليه ابن سينا مخالف لنص القرآن ولإجماع المسلمين، فالله تعالى يختص برحمته من يشاء من عباده، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، ولا يشترط في النبوة استعداد ذاتي كما زعم ابن سينا، ولا تتال بمجرد الكسب، وتكلف أنواع العبادات، وتطهير الأخلاق، ورياضة النفس، والله تعالى بيّن في كتابه العزيز أن النبوة اصطفاء واختيار واجتباء إلهي، وهي فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده، (٣٦) ونصوص القرآن في ذلك كثيرة، ومن ذلك: قوله تعالى: (الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير) سورة الحج: ٧٥، وقوله: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) سورة آل عمران: ٣٣، وقوله تعالى لنبيه موسى: (قال يا موسى إني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) سورة الأعراف: ١٤٤، وقوله تعالى: (واذكر عبادنا إبراهيم

(٣٠) انظر الاقتصاد في الاعتقاد: أبو حامد الغزالي، طبعة ١٩٦٢م ص ١٧٥.

(٣١) اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، مطبعة السنة

المحمدية ١٣٦٩هـ ص ٤٠٩-٤١٠.

(٣٢) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية - مصدر سابق - ٢٥٨/٢-٢٩٥.

(٣٣) انظر الرد على المنطقيين - مصدر سابق - ص ٢٧٧. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية - مصدر سابق - ٢٦٧/٢.

(٣٤) الإشارات والتنبيهات: ابن سينا، تحقيق الدكتور سليمان دنيا، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ٢٤٣/٣.

(٣٥) المصدر السابق ٢٢٠/٣.

(٣٦) انظر لوامع الأنوار البهية - مصدر سابق - ٢٦٧-٢٧٧.

وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين
الأخيار (سورة ص: ٤٥-٤٧ .

إن ادعاء ابن سينا بأن النبوة مكتسبة قد رتبته على نظرية الفيض التي استمدتها من الفلسفة
اليونانية، وخاصة فلسفة أفلوطين، وادعاؤه هذا يسقط الفوارق بين الأنبياء عليهم السلام وغيرهم من الناس،
فما دامت النبوة مكتسبة فقد يدعيها مدع، ويزعم أنه كالنبي علماً وحكمة وعملاً، أو أنه فوق النبي في مثل
هذه الأمور .

وبهذا يتبين أن ابن سينا ما قدر حق قدره، ولا قدر الأنبياء حق قدرهم، لما ظن أن الإنسان إذا كان
فيه استعداد لكمال تركية نفسه وإصلاحها فاضت عليه بسبب ذلك المعارف من العقل الفعال، وأن حصول
النبوة ليس هو أمر يحدثه الله بمشيئته وقدرته واختياره.^(٣٧)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "والذي عليه جمهور سلف الأمة وأئمتها وكثير من النظار أن الله
يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فالنبي يختص بصفات ميزه الله بها
على غيره، وفي عقله ودينه واستعد بها لأن يخصصه الله بفضله ورحمته، كما قال تعالى: (وقالوا لولا نزل
هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة
الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) سورة الزخرف ٣١-٣٢، وقال تعالى: (ما يؤدّ الذين كفروا من أهل
الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل
العظيم) سورة البقرة: ١٠٠ وقال تعالى لما ذكر الأنبياء بقوله: (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف
وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل
واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضّلنا على العالمين ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم إلى
صراط مستقيم) سورة الأنعام: ٨٤-٨٧، فأخبر أنه اجتباهم وهداهم".^(٣٨)

ويقول العلامة محمد بن أحمد السفاريني: "وعند التحقيق فلا فرق عندهم- أي الفلاسفة، وابن سينا
منهم- بين الفيض على نفس النبي وسائر النفوس إلا من جهة كونها أصفى وأكمل"، ويقول: "من زعم أنها
مكتسبة فهو زنديق يجب قتله، لأنه يقتضي كلامه واعتقاده أن لا تتقطع، وهو مخالف للنص القرآني
والأحاديث المتواترة بأن نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين عليهم السلام".^(٣٩)

المطلب الخامس: عمدة ابن سينا في إثبات النبوة :

إن عمدة ابن سينا في إثبات النبوة هو المنامات. قال إن معرفة الأمور الغائبة عن طريق النوم
ممكنة ، فوجب أيضاً أن تكون كذلك في حالة اليقظة. فالنائم تتجرد نفسه عن بدنه نوع تجرد فيحصل لها

^(٣٧) (الصفدية- بتصرف- ابن تيمية ١/٢٢٩ .

^(٣٨) منهاج السنة النبوية ٢/٤١٦-٤١٧ .

^(٣٩) (لوامع الأنوار البهية- مصدر سابق- /٢٦٨ .

من العلم الذي يلقيه الله إليها ما لم تحصله في غير هذا الحال. وهكذا يمكن أن يحصل في اليقظة نوع مجرد فتنصل النفس البشرية بالنفس الكلية وتتلقى عنها من العلم ما لم تحصله في غير هذا الحال^(٤٠).

وفي رأي ابن سينا أنّ التجربة والبرهان القياسي يشهدان أنّ النفس الإنسانية تستطيع أثناء النوم الوقوف على المجهول، وإذا كان الأمر كذلك فليس بمستبعد عليها أن تتكشف المجهول حال اليقظة. وأنّ التجربة والقياس يقرران أن أشخاصاً كثيرين تنبؤوا بالمستقبل عن طريق الأحلام. وكذلك العقل حيث نسلم بأن الأحداث الماضية والحاضرة والمستقبلية مثبتة في العالم العلوي، ومقيدة في اللوح المحفوظ. وإذا استطاعت النفوس البشرية الصعود إلى العالم العلوي والوقوف على ما في اللوح المحفوظ عرفت ما فيه، وتنبأت بالغيب. وإذا كان هناك أشخاص يدركون مثل هذا الغيب عن طريق مخيلتهم أثناء النوم فيحلمون بأشياء كأنها حقائق مسلمة. فإنّ غيرهم من الأشخاص ممن عظمت نفوسهم وقويت مخيلتهم يدركون ما في علم الغيب حال اليقظة، - كما يدرك غيرهم حال النوم- وهؤلاء هم الأنبياء^(٤١).

يقول ابن سينا: "التجربة و القياس متطابقان علماً أنّ للنفس الإنسانية أن تتال من الغيب نيلاً ما في حال النوم، فلا مانع من أن يقع مثل ذلك النيل في حال اليقظة، إلا ما كان إلى زواله سبيل، ولارتفاعه إمكان. أما التجربة فالسمع والتعارف يشهدان به، وليس أحد من الناس إلا وقد جرّب ذلك في نفسه تجارب ألهمته التصديق، اللهم إلا أن يكون أحدهم فاسد المزاج، نائم قوي التخيل والتذكر، أما القياس فاستبصر فيه من تنبيهات: تنبه: قد علمت فيما سلف أن الجزئيات منقوشة في العالم العقلي نقشاً على وجه كلى، ثم قد نبهت لأنّ الأجرام السماوية لها نفوس ذوات إدراكات جزئية وإرادات جزئية تصدر عن رأى جزئي، ولا مانع لها عن تصور اللوازم الجزئية لحركاتها الجزئية من الكائنات عنها في العالم العنصري"^(٤٢).

ويرى ابن سينا استمرار أفعال اليقظة في الأحلام، وذلك يكون باستمرار بعض الأفعال والأفكار التي تشغل الإنسان أثناء اليقظة، حتى إذا استمرت المتخيلة مشغولة بها، والمتخيلة تحكي أموراً قريباً إليها إرادية، ويحدث هذا عندما تكون في همة لنفس وقت اليقظة شيء تنصرف النفس إلى تأمله وتدبره، فإذا نام لإنسان أخذت المتخيلة تحكي ذلك الشيء وما هو من جنسه، وهذا من بقايا انشغال الفكر في حالة اليقظة^(٤٣).

والأحلام التي أشبه بها النبوات- عند ابن سينا- لا تنشأ عن احساسات خارجية أو داخلية بدينية، ولا تكون من بقايا اليقظة، وإنما تنشأ عن اتصال النفس بالملكوت (الملائكة أو العقل الفعّال) ويحدث ذلك أثناء النوم وفي بعض حالات اليقظة، فتتلقى النفس من هناك الوحي والإلهام. ويكون ذلك بمثابة الإنذار والإخبار

^(٤٠) (الإشارات والتنبيهات-مصدر سابق- ٨٩٩/٤-٩٠٠، الرد على المنطقيين-مصدر سابق- ص ٤٨٤-٤٨٦،

الصفدية:أحمد بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، ١/٦-٧.

^(٤١) انظر في الفلسفة الإسلامية-منهج وتطبيقه-: مذكور، دار المعارف- القاهرة- الطبعة الثالثة، ١/١٠١، الجانب الإلهي

في فلسفة ابن سينا: الدكتور سالم مرداش، دار قتيبة- دمشق- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص ٢٩٤.

^(٤٢) (الإشارات والتنبيهات-مصدر سابق- ص ٢٤١-٢٤٢.

^(٤٣) انظر الشفاء: ابن سينا، تحقيق جورج قنوت، وسعيد زايد، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة ١٩٧٥م-١/٣٣٨

بما سيكون^(٤٤)). فإذا حدث الاتصال أثناء النوم فهو رؤيا، وإذا حدث ذلك أثناء اليقظة فهو وحي وإلهام، وذلك وظيفة من وظائف القوة المتخيلة عند الإنسان^(٤٥).

يقول ابن سينا: "وصنف- أي عن المعجزات- يتعلق بفضيلة التخيل، ذلك أن يؤتي المستعد لذلك ما يقوى به على تخيلات الأمور الحاضرة والماضية، والإطلاع على مغيبات الأمور المستقبلية، فيلقي إليه كثير من الأمور التي تقدم وقوعها بزمن طويل فيخبر عنها، وكثير من الأمور التي تكون في زمان المستقبل يخبر بها، وبالجملة يتحدث عن الغيب فيكون بشيراً ونذيراً.. وقد يكون هذا المعنى لكثير من الناس في النوم ويسمى الرؤيا. وأما الأنبياء عليهم السلام فإنما يكون ذلك لهم في حالة النوم واليقظة معاً"^(٤٦).

المناقشة :

إن الرؤيا ثلاثة أقسام: رؤيا بشرى من الله تعالى، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه في اليقظة، فيراه في المنام، وقد ثبت هذا التقسيم في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم. فعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: "الرؤيا الصالحة بشارة من الله والتحزين من الشيطان، ومن الرؤيا يحدث به الرجل نفسه"^(٤٧).

إن كلام ابن سينا في الرؤيا، واتصال النفس بالعالم العلوي أثناء النوم يحتاج إلى توضيح، وبيان ذلك: أن عامة علماء الإسلام يقرون بأن الرؤيا الصادقة من الله تعالى، فإن ما ادعاه من أن الرؤيا قد يحصل بها معرفة المغيبات فحق، فرسول الله صلى الله عليه وسلم ﷺ أول ما بدئ به الوحي الرؤيا الصادقة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح..."^(٤٨) وكان في أول الأمر يرى الوحي في المنام ودام كذلك نصف سنة ثم رأى الملك في اليقظة، حكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر^(٤٩).

ورؤى الأنبياء وحي معصوم، والرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح، أو تُرى له حق، وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، كما جاء في الأحاديث الصحيحة: قولها: "رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة"^(٥٠)، وقوله: "الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة"^(٥١).

ورؤيا الأنبياء وحي بخلاف غيرهم، فالوحي لا يدخله خلل، ولا يتعلق به هوى لأنه محروس قال الله تعالى: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) سورة النجم: ٣-٤، بخلاف رؤيا غير الأنبياء، فإنها

^(٤٤) انظر المصدر السابق ١/٣٣٦-٣٣٨، الإشارات والتنبيهات- مصدر سابق- ٢/١٣٥-١٣٧.

^(٤٥) انظر الشفاء- مصدر سابق- ١/٣٣٤.

^(٤٦) - رسالة الفيض الإلهي: ابن سينا- صورة موجودة بدار الكتب الأهلية بالقاهرة أخذت عن نسخة محفوظة موجودة بالمتحف البريطاني رقم ٣٩٤.

^(٤٧) رواه النسائي في السنن الكبرى رقم (٧٦٥)، ٤/٣٩٠.

^(٤٨) رواه البخاري رقم (٦٩٨٢) كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة

^(٤٩) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني تصحيح وتعليق الشيخ عبد العزيز ابن باز، نشر وتوزيع رئاسة إدارات لبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد -الرياض- ١/٢٧.

^(٥٠) رواه البخاري رقم (٦٩٨٧، ٦٩٨٨) كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

^(٥١) رواه مسلم رقم (٢٢٦٥) في كتاب الرؤيا في فاتحته.

قد يحضرها الشيطان، وقد وردت في القرآن الكريم أمثلة من الرؤيا الصادقة، وهى رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن ذلك الرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم وهو في طريقه إلى الحديبية، قال الله تعالى: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين) سورة الفتح: ٢٧، والرؤيا التي رآها إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: (يا بني إني أرى في المنام أنني أذبحك) سورة الصافات: ١٠٢.

وكلام ابن سينا عن الرؤيا الصادقة، وهو ما يراه الإنسان نتيجة اتصاله بالعالم العلوي حق، خاصة وأنه يرى أنّ الأحلام الناشئة عن الاحساسات البدنية كاذبة، ويسمياها أضغاث أحلام^(٥٢). ولكن أقواله بالجملة تحتاج إلى تحليل وبيان، حتى لا يلتبس الحق بالباطل، لأنّ رؤيا الأنبياء وحي بخلاف رؤيا غيرهم من الناس، والوحي لا يدخله خلل، ولا يخالطه هوى أو تخيلات، وهذا حاصل في رؤيا كثير من الناس، بسبب تلبس إبليس، أو نتيجة مرض أو هوس، ونحو ذلك. قال ابن بطال: "والرؤيا الصادقة وأن كانت جزءاً من النبوة فهي باعتبار صدقها، وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبياً، وليس كذلك".^(٥٣) وإذا كان الأنبياء يختصون بآيات يؤيدون بها لتمييزوا بها عمّن ليس مثلهم، كما تميزوا بالعلم الإلهي، فإنّ رؤاهم كذلك يجب أن يميزوا بها عمّن ليس مثلهم.

قال الخطابي: "قال بعض العلماء: أقام صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ثلاثاً وعشرين سنة، منها عشر سنين بالمدينة وثلاث عشرة بمكة، وكان قبل ذلك ستة أشهر يرى في المنام الوحي، وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً، وقال بعض العلماء: معنى الحديث أي حديث الرؤيا - أن الرؤيا تأتي على موافقة النبوة، لأنّها جزء باق من النبوة". وأضاف الخطابي: "هذا الحديث توكيد لأمر الرؤيا وتحقيق منزلتها، وقال وإنما كانت جزءاً من أجزاء النبوة في حق الأنبياء دون غيرهم، وكان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يوحى إليهم في منامهم كما يوحى إليهم في اليقظة".

وقال المازري: "ويحتمل أن يكون المراد أن المنام فيه إخبار الغيب، وهو إحدى ثمرات النبوة، وهو ليس في حد النبوة؛ لأنه يجوز أن يبعث الله تعالى نبياً ليشرع الشرائع، ويبين الأحكام، ولا يخبر بغيب أبداً، ولا يقدر ذلك في نبوته، ولا يؤثر في مقصودها، هذا الجزء من النبوة وهو الإخبار بالغيب إذا وقع لا يكون إلا صدقاً". وأضاف المازري في: "كثير كلام الناس في حقيقة الرؤيا، وقال فيها غير الإسلاميين أقوال كثيرة منكورة، لأنهم حاولوا الوقوف على حقائق لا تدرك بالعقل ولا يقوم عليها برهان وهم لا يصدقون بالسمع فاضطربت أقوالهم... ومن ينتمي إلى الفلسفة يقول: إن صور ما يجري في الأرض هي في العالم العلوي كالنقوش فما حاذى بعض النقوش منها انتقش فيها، قال وهذا أشدّ فساداً من الأول لكونه تحكماً لا برهان عليه والانتقاش من صفات الأجسام، وأكثر ما يجري في العالم العلوي الأعراض، والأعراض لا ينتقش فيها، والصحيح ما عليه أهل السنة أنّ الله يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان، فإذا خلقها فكأنه جعلها علماً على أمور أخرى يخلقها في ثاني الحال، ومهما وقع منها على خلاف المعتمد فهو كما يقع لليقظان، ونظيره أن الله خلق الغيم علامة على المطر، وقد يتخلف، وتلك الاعتقادات

^(٥٢) انظر الشفاء - مصدر سابق - ٣٣٨/١

^(٥٣) فتح الباري ١/٢٠١.

تقع تارة بحضرة الملك فيقع بعدها ما يسرّ، أو بحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضرّ، والعلم عند الله تعالى". وقال القرطبي: سبب تخطيط غير الشرعيين إعراضهم عمّا جاءت به الأنبياء من الطريق المستقيم، وبيان ذلك: أنّ الرؤيا إنّما هي من إدراكات النفس وقد غيّب عنّا علم حقيقتها أي النفس، وإذا كان كذلك فالأولى أن لا نعلم علم إدراكاتها، بل كثير ممّا انكشف لنا من إدراكات السمع والبصر إنّما نعلم منه أموراً جميلة لا تفصيلية".^(٤٤)

إنّ ما يجعله الله تعالى في النفوس إنّما يكون بعد إعدادها لذلك وتسويتها - لما يلقي فيها - بالعبادة الخالصة ومجاهدة النفس وإلزامها طاعة ربها عز وجل. لكن لا تجعل النبوة كلها من هذا الجنس فالنبي ﷺ كان يأتيه الملك ويخاطبه بالكلام، وأحياناً يأتيه في الباطن فيكلمه، وأحياناً يتمثل له في صورة الرجل فيكلمه. قال تعالى: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم) الشورى: ٤٢. (٤٥)

يقول أبو حامد الغزالي في مناقشته لمسك ابن سينا السابق: " بم تتكرون على من يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم، يعرف الغيب، بتعريف الله عز وجل، على سبيل الابتداء، وكذا من يرى في المنام، فإنها يعرفه بتعريف الله تعالى، أو تعريف ملك من الملائكة، فلا يحتاج إلى شيء مما ذكرتموه، فلا دليل في هذا، ولا دليل لكم في ورود الشرع باللوح المحفوظ، والقلم، فإن أهل الشرع، لم يفهموا من اللوح والقلم، هذا المعنى قطعاً، فلا متمسك لكم في الشرعيات.. وإنّما السبيل فيه أن يتعرف من الشرع، لا من العقل".^(٤٦)

ويقال لابن سينا وإخوانه من الفلاسفة: إنّ الأدلة على إثبات النبوة ليست مقتصرة على ما ذكرتموه، فإنّما تثبت بالمعجزة، وبالإستدلال بأحوال النبي وصفاته قبل النبوة وبصفاته حال الدعوة، وبعد تمامها، ومن خلال دراسة أخلاقه وأحكامه ومعاملاته مع الناس، ويستدل عليها أيضاً بنصرة دينه على أعدائه، وعلغيه من الأديان، وبهلاك المكذبين له. وتثبت بصدق ما يخبر عن ربه بوقوعه على ما أخبر به. وبإخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته. كما جاء خبر ووصف رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل. وتثبت نبوته من خلال دراسة ما يدعو إليه واتصافه بالواقعية والترابط وعدم التناقض والاضطراب، وكونه مما ترتضيه الفطرة السليمة، والعقل الصريح، وتستريح إليه القلوب والضامير الحية.^(٤٧)

ومن الباطل في أقوال ابن سينا أنه جعل إدراك النبي الأمور الحاضرة والماضية، والإطلاع على مغيبات أمور المستقبل يحصل بفضيلة قوى التخيل عند النبي نفسه، ومن المعلوم بالضرورة أنّ هذه لا تدرك إلا بخبر المخبر للإنسان، وأمّا علمه بها بدون الخبر فممتنع من قوى النفس، قال تعالى: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) القصص: ٤٦، وقال (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعُرَيْبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

^(٤٤) انظر قول المازري والقرطبي في: فتح الباري ٣٥٢/١٢

^(٤٥) انظر الرد على المنطقيين - مصدر سابق - ص ٤٨٥ - ٤٨٦.

^(٤٦) تهافت الفلاسفة: أبو حامد الغزالي، تحقيق الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثامنة ص ٢٢٩.

^(٤٧) انظر المواقف في علم الكلام: عضد الدين عبد الرحمن الإيجي، عالم الكتب - بيروت - ص ٣٥٦ - ٣٥٧

القصص: ٤٤، (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) (يوسف: ١٠٢) ، وقال (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَفْئَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) آل عمران: ٤٤. (٥٨)

المطلب السادس: صفة الكلام :

ذهب ابن سينا إلى أن كلام الله تعالى ليس صفة قائمة بذاته تعالى، وليس له وجود خارج نفوس العباد ، فليس لله كلام أنزله بواسطة جبريل عليه السلام على أنبيائه الذين اصطفاهم برسالاته .وزعم أن الكلام هو ما يفيض على نفس النبي من العقل الفعّال أو من غيره ، وأن الله تعالى لم يكلم موسى عليه السلام تكليماً ، إنما كلمه من سماء عقله بما أحدثه في نفسه من كلام، لم يسمعه موسى عليه السلام من خارج نفسه. فالمتكلم - عندهم - حقيقة هو النبي، أما الله تعالى فهو متكلم مجازاً بما خلقه في نفس النبي من ألفاظ . فالله لم يتكلم بصوت يسمعه النبي من خارج نفسه ، أي لا حقيقة لكلام الله في الخارج. (٥٩)

ولتوضيح معنى كلام الله عند ابن سينا ننقل بعض أقواله التي جاءت في مؤلفاته، ومؤلفات العلماء المطلعين على مذهبه الفلسفي.

يقول ابن سينا : " فوصفه بكونه متكلماً لا يرجع إلى ترديد العبارات ، ولا إلى أحاديث النفس والفكر المتخيلة المختلفة التي العبارات دلائل عليها ، بل فيضان العلوم منه على لوح قلب النبي بواسطة القلم النقّاش الذي يعبر عنه بالعقل الفعّال والملك المقرب هو كلامه. فالنبي يتلقى علم الغيب من الحق بواسطة الملك ، وقوة التخيل تتلقى تلك وتتصورها بصورة الحروف والأشكال المختلفة، وتجد لوح النفس فارغاً فتتقش تلك العبارات والصور فيه فيسمع منها كلاماً منظوماً، ويرى شخصاً بشرياً فذلك هو الوحي، لأنه إلقاء الشيء إلى النبي بلا زمان ، فيتصور في نفسه الصافية الملقى الملقى، كما يتصور في المرآة المجلوة صورة المقابل ، فتارة يعبر عن ذلك المنتقش بعبارة العبرية وتارة بعبارة العرب ، فالمصدر واحد والمظهر متعدد ، فذلك هو سماع كلام الملائكة ورؤيتها. (٦٠)

(٥٨) الصفدية ١/١٤٢.

(٥٩) انظر: الرسالة العرشية - ابن سينا - ص ١٢، رسالة في النبوات له، ص ٧٥ ، الاقتصاد في الاعتقاد: أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص ٨٤، نهاية الإقدام في علم الكلام: محمد عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق الفرد جيوم، ص ٢٩٣ ، مجموع الفتاوى: ابن تيمية، ١٤/١٢، ٢٣، ١٦٣، ٣٥١-٣٥٣، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية: احمد عبد الحلیم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ٣٥٩/٢، الصفدية- مصدر سابق - ١/٢٠١-٢٠٤، مجموع الرسائل والمسائل: أحمد عبد الحلیم بن تيمية، تعليق محمد رشيد رضا، لجنة التراث العربي، القاهرة، ٣/٣٨، إغاثة اللهفان من مصاديق الشيطان: محمد بن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية-بيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ٢/٢٨١، مختصر الصواعق المرسله في على الجهمية والمعتلة: محمد بن علي الموصلي، توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد- الرياض- ٢/٢٨٨، ٣٢٩، شرح القصيدة النونية لابن قيم الجوزية، محمد خليل هراس، مطبعة الإمام، القاهرة، ١/١٣١، شرح العقيدة الطحاوية ٢/٤٠٢-٤٠٣.

(٦٠) الرسالة العرشية ص ١٢ .

يتضح لقارئ أقوال ابن سينا أنه ينكر صفة الكلام لله تعالى كما جاءت في الكتاب والسنة، وهو أنه تعالى قد تكلم بصوت وحرف مسموع ، وأن ابن سينا يرجع الوحي والنبوة إلى قوة التخيل لدى النبي وأن الرسول يسمع أصواتاً من داخل نفسه لا يكلمه الله عز وجل مشافهة كتكليمه لنبيه موسى عليه السلام ، ولا بواسطة الملك جبريل الذي ينزل بكلامه تعالى على المختار لرسالته، كما حصل للنبي محمد صلى الله عليه وسلم. (٦١)

وجاء في رسالة " النبوات " لابن سينا : أن إفاضة العقل الكلي على نفس النبي الذي ينتهي إليه التفاضل في الصور المادية، وفيضات العلوم منه على لوح قلب النبي بواسطة العقل الفعال والملك المقرب ، هو كلامه " . (٦٢)

ويصوّر ابن قيم الجوزية مذهب الفلاسفة في كلام الله تعالى فيقول : مذهب الفلاسفة المتأخرين أتباع أرسطو - وهم الذين يحكي ابن سينا والفارابي والطوسي قولهم - : إن كلام الله فيض فاض من العقل الفعال على النفوس الفاضلة الزكية بحسب استعدادها ، فأوجب لها ذلك الفيض من تصورات وتصديقات بحسب ما قبلته منه، ولهذه النفوس عندهم ثلاث قوى، قوة التصور، وقوة التخيل، وقوة التعبير. فتدرك بقوة تصورها من المعاني ما يعجز عنه غيرها، وتدرك بقوة تخيلها شكل المعقول في صورة المحسوس فتتصور المعقول صوراً نورانية تخاطبها وتكلمها بكلام تسمعه الأذن، وهو عندهم كلام الله ولا حقيقة له في الخارج، وإنما ذلك كله من القوة الخيالية الوهمية. قالوا: وربما قويت هذه القوة على إسماع ذلك الخطاب لغيرها، وتشكيل تلك الصور العقلية لعين الرائي، فيرى الملائكة ويسمع خطابهم، وكل ذلك من الوهم والخيال لا في الخارج". (٦٣)

حجة الفلاسفة في نفي صفة الكلام :

استدل ابن سينا على نفي صفة الكلام بحجة داحضة وهي : أن إثبات صفة الكلام لله تعالى يوجب إما أن يكون كلامه من جنس كلام البشر ، أو لا يكون من جنس كلامهم، فإذا كان من جنس كلام البشر كان مشاركاً له من جهة الإمكان والعرضية ، أي كونه ممكناً ومحلاً للأعراض ، وهذا متعذر في حقه تعالى ، ويلزم أن يكون الله تعالى جرمًا لأن الكلام غير متصور دون حروف وأصوات، والحروف عبارة عن تقطيع الأصوات، وهذا لا يكون إلا للجرم، والصوت لا يكون إلا عن احتكاكات الأجرام. وإذا كان كلامه ليس من جنس كلام البشر فهو غير معقول، وغير المعقول محال. (٦٤)

(٦١) . لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية-مصدر سابق- ص ١٧٠، ابن تيمية السلفي- نقد لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الإلهيات-: الدكتور محمد خليل هراس، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص ١١٤ .

(٦٢) انظر: رسائل في الحكمة والطبيعات - رسالة في إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم- مصدر سابق- ص ٨٤- ٨٥ .

(٦٣) مختصر الصواعق المرسلّة- مصدر سابق- ٢/٢٨٨ .

(٦٤) غاية المرام في علم الكلام: سيف الدين الأمدي، تحقيق حسن محمود الشافعي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث- القاهرة -١٣٩١هـ-١٩٧١م- بتصرف - ص ٩٢ .

وإذا قيل له إن نفي صفة الكلام يقتضي إنكار أمره ونهيه عز وجل، وهذا يؤدي إلى عدم تحقيق معنى الطاعة له تعالى، وعدم صحة الرسالة. قال: إن معنى الطاعة لا يتحقق عن طريق الأمر والنهي، بل يستند إلى التسخير على وجه الطوعية والإذعان على وفق الإرادة والاختيار، وأن تسخيره تعالى للمخلوقات وإبداعه للكائنات دون آلات وأدوات، وتقليبه الخلاق بين المرغبات والمنفات على وجه الطوعية حالة تنزل منزل القول بالأمر والنهي وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله: (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) سورة فصلت: ١١، فخطابه للسماء والأرض متعذر وكذلك قولهما، وليس ذلك منهما إلا على سبيل الانقياد والتسخير. (٦٥)

المناقشة: تتضمن المناقشة النقاط التالية:

أولاً: إثبات صفة الكلام لله عز وجل:

الكلام من صفات الكمال، فمن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، كمن يعلم ويسمع فهو أكمل ممن ليس كذلك، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً لذاته، ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئة واختيار. والكلام يكون صفة كمال للمتكلم إذا كان الكلام قائماً به، صادراً عنه بمشيئته وقدرته، لا كونه أمراً مباحياً له منفصلاً عنه. (٦٦)

ولقد جاءت نصوص الكتاب والسنة تقرر صفة الكلام لله، وتثبت أنه متكلم حقيقة بكلام حقيقي هو صفة له، وهذه النصوص لا يملك المسلم أمامها إلا الإيمان بما أثبتته—دون تأويل أو تكييف أو تمثيل— ولا يستطيع أن يعطلها أو يحرفها، وإلا دخل إيمانه ما يشوبه ويكره.

والقرآن الكريم زاخر بالآيات التي تثبت أنه تعالى تكلم ويتكلم، وكلم ويكلم وقال ويقول، ونادى وينادي، وأخبر وأنبأ، وغير ذلك من الألفاظ التي تدل صراحة على أنه تعالى متكلم بكلام حقيقي. (٦٧)

ومن هذه الآيات قوله تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) سورة النساء: ١٦٤ وقوله: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ) سورة الأعراف: ١٤٣، وقوله: (قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي) سورة الأعراف: ١٤٤، وقوله: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) سورة التوبة: ٦، وقوله: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) سورة البقرة: ٣٠، وقوله: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) سورة المائدة: ١١٦، وقوله: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا) سورة البقرة: ٣٤، وقوله: (وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ) سورة البقرة: ٦٠، وقوله: (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) سورة الشعراء: ١٠، وقوله: (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ، قَدْ صَدَّقْتَ)

(٦٥) المصدر السابق - بتصرف - ص ٩٣-٩٤.

(٦٦) انظر: شرح العقيدة الأصفهانية: أحمد عبد الحلیم بن تیمیة، قدّم له وعرف به الشيخ حسين محمد مخلوف، دار الكتب الحديثة- القاهرة- ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م، ص ٧٣، مجموع الرسائل والمسائل - مصدر سابق - ٤٤/٣-٤٥.

(٦٧) انظر: ابن حزم وموقفه من الإلهيات- عرض ونقد- الدكتور أحمد ناصر الحمد، جامعة أم القرى الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ص ٢٥٧-٢٥٨، القائد إلى تصحيح العقائد: عبد الرحمن المعلمي، علق عليه محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص ٢٢٠.

(الرُّؤْيَا) سورة الصافات ١٠٤ - ١٠٥، وقوله: (قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ)
سورة التوبة: ٩٤، وقوله: (إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) سورة الزمر: ٧.

ومن الأحاديث الشريفة ما رواه عدي بن حاتم رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "وما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة ليس بين الله وبينه ترجمان..".^(٦٨) وما رواه عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان".^(٦٩)

ثانياً : مناقشة حجة ابن سينا :-

إنَّ صفة الكلام من صفات الكمال التي يجب إثباتها لله تعالى على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله ، ولا يعني بالضرورة أن إثباتها يقتضي أن يكون من جنس كلام البشر، فالقرآن الكريم والسنة جاء فيهما إثبات الكلام والنطق لبعض المخلوقات والجمادات، ومن المعلوم أن كلام هذه المخلوقات ليس من جنس كلام البشر، فليس لها آلات ولا أدوات قال تعالى مخبراً عن قول جهنم يوم القيامة (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) سورة ق: ٣٠، وأخبر عن السماء والأرض أنهما قالتا: قال تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) سورة فصلت: ١١، وأخبر عن نطق أعضاء الإنسان يوم القيامة، شاهدة على أعمال صاحبها (حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَقَالُوا لِمَ لُجُودِنَا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَالْيَوْمَ نُرْجِعُكُمْ) سورة فصلت: ٢٠-٢١.

وجاء في السنة أنه عليه الصلاة والسلام. كان يسمع تسليم الحجر والشجر عليه وهو بمكة المكرمة.^(٧٠) وسمع أصحابه تسبيح الحصى بين يديه.^(٧١)

٦٨) رواه البخاري ١٤٠/٨، في الرقاق - باب من نوقش الحساب عذب، ونحوه ٣٤/٢، في الزكاة - باب الصدقة قيل الرد ، ونحوه ١٨١/٩، في التوحيد ، باب كلام الرب يوم القيامة، ومسلم نحوه رقم ١٠١٦، ٧٠٣/١-٧٠٤ في الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمره.

٦٩) رواه البخاري تعليقاً بصيغه المبني للمجهول، ٧٢/٩، في التوحيد ، باب قول الله " ولا تنفع الشفاعة عنده " وذكره بالجزم ٢٩/١ في العلم، باب الخروج في طلب العلم ، فقال : " رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد ". ورواه البخاري موصولاً في الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكنتها- القاهرة- ١٣٧٥هـ، رقم ٩٧٠، باب المعانقة، ورواه بلفظ التعليق في خلق أفعال العباد والرد على الجهمية، تحقيق وتعليق محمد السعيد بسيوني، مكتبة التراث- القاهرة، رقم ٦٩، ص ٢٣ ، موصولاً رقم ٣٦٥، ص ١٣٧، رواه أحمد في المسند، تحقيق أحمد شاكر، المكتب الإسلامي- طبعة المعارف- القاهرة- ١٩٦٥م-١٣٧٤هـ، ١٩٤٦-١٩٥٥م، ٣/٣٩٥، وحسن إسناده الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، طبط وتعليق مصطفى محمد عمارة، دار التراث العربي- بيروت- الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، ٤/٤٠٤، في ذكر الحساب وغيره، ورواه الحاكم في كتاب الأوهال، ٤/٥٧٤-٥٧٥، وقال: صحيح الإسناد ولم يخزجاه ، ووافقه الذهبي، ورواه ابن أبي عاصم في السنة (ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني) المكتب الإسلامي- بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م، ص ٥١٤، قال الألباني في تخريج السنة : حديث صحيح .

٧٠) انظر: ما رواه مسلم، رقم ٢٢٧٧، ٤/١٧٨٢، في الفضائل ، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم - وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، وما رواه الترمذي ، رقم ٣٦٢٨، ٩/٢٤٦، ٩/٢٤٦ في المناقب، باب في إثبات نبوة النبي صلى

وبهذه الأخبار وغيرها أصبح معلوماً لدى الناس أنّ الكلام والتكلم بالحرف والصوت ليس موقوفاً على الأدوات والآلات التي يتكلم بها الإنسان، بل قد يتكلم المخلوق بدونها فكيف بالخالق عز وجل الذي لا يماثله المخلوق ، فلا يلزم إذاً أن يكون الله تعالى جرمًا إذا اتصف بالكلام كما زعم ابن سينا. (٧٢)

وأما ما جاء في الدليل من الزعم بأنّ الكلام إذا كان من غير جنس كلام البشر فغير معقول، وغير المعقول محال . فيردُّ عليه بأنّ كلام الله لا يماثل كلام البشر، وغير المعقول أن يكون من جنس كلام البشر، إذ لو كان من جنسه لدخل الله تعالى تحت جنس البشر، وهذا محال . فذاته تعالى لا تماثل ذات أحد من المخلوقات لا بشر ولا غيرهم وكذلك صفاته تعالى، قال تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) سورة الشورى: ١١. وإذا كان الفلاسفة لا يتصورون كلاماً من غير جنس البشر فهذا راجع لقصور عقولهم، وعدم إيمانهم بالقرآن الكريم وغيره من الكتب السماوية التي أثبتت كلاماً للجمادات . وأهل الإيمان لا يلزمهم التسليم بكل ما يقرره من يلحد في أسماء الله وصفاته .

وأما ما زعمه من معنى الطاعة وتحقيق الرسالة فإنّ الآمدي بيّن بطلانه بقوله: "وأما ما أشاروا إليه في معنى الطاعة وتحقيق الرسالة فتمويه لا حاصل له ، وإلا لزم أن يكون كل تسخير بفعل شيء ما أمراً وتركه نهياً، وأن يكون الانقياد إلى ذلك التسخير طاعة كان ذلك في نفسه عبادة أو معصية . ولا يخفي ما في طي ذلك من المحال ، فإنه ليس كل ما يسخر به مأموراً، ولا كل ما انقاد العبد إلى فعله يكون طاعةً على ما يخفي. وإذا كان الأمر على هذه المثابة لم يصح معنى التبليغ والرسالة عن الله..". (٧٣)

ثالثاً : مناقشة معنى كلام الله عنده :

وأما قوله بأنّ كلام الله عبارة عن فيض من العقل الفعّال على نفس النبي، فيرد عليه بالآتي :

١- لو كان كلام الله هو ما يفيض به العقل الفعّال على نفس النبي، لكان آحاد الناس مشاركاً للنبي في هذا الأمر، فمن الناس من يرى في المنام أن الملائكة تخاطبه وتكلمه، وأنه في السماوات .

الله عليه وسلم وما خصه الله به ، قال الترمذي. هذا حديث حسن غريب، رقم ٣٦٣٠، ٢٤٧/٩ في المناقب، باب الشجر والحجر يسلمان على النبي صلى الله عليه وسلم .

(٧١) انظر: ما رواه البزار في كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة: على بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، رقم ٢٤١٣، ١٣٥/٣-١٣٦، في علامات النبوة، باب تسبيح الحصى - قال الهيثمي رواه البزار بإسناد ين، ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف ٢٩٩/٨ وذكر رواية في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٧٩/٥، ثم عقب عليها بقوله : وله طريق أحسن من هذا في علامات النبوة، وإسناده صحيح، وانظر : دلائل النبوة لأبي نعيم، حيدر آباد الدكن- الهند- الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، ٣٦٩-٣٧٠، وشرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة للالكائي ٤٠٦/٤-٤٠٧.

(٧٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية- مصدر سابق- ١٧٥/١-١٧٦، قطف الثمر في عقيدة أهل الأثر لصديق محمد صديق حسن خان، تحقيق وتعليق وتقديم عاصم بن عبد الله القريوتي- شركة الشرق الأوسط للطباعة-الأرن- الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص ٧٩-٨٠، القائد إلى تصحيح العقائد- مصدر سابق- ص ٢٢٠.

(٧٣) غاية المرام في علم الكلام- مصدر سابق- ص ١٠١.

٢- لو كان كلام الله ليس له وجود في الخارج ، إنما يسمعه الرسول من نفسه بما يفيض فيها من العقال
الفعال، لما عانددت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبته في دعواه أنه رسول من رب العالمين أنزل
الله عليه القرآن ، ليكون للناس هادياً ومبشراً ونذيراً.^(٧٤)

٣- قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا
يَشَاءُ) سورة الشورى: ٥١، وقال: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) سورة النساء: ١٦٤، وقال: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ) سورة البقرة: ٢٥٣، وهذه الآيات ونحوها أثبتت كلام الله تعالى لبعض
رسله تكليماً وتكليم الله لبعض عباده تكليماً خارجاً عن جنس الفيض - الذي زعمه الفلاسفة - الذي هو
ضرب من الإيحاء العام.^(٧٥)

٤- قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)
سورة الأنعام : ١١٤ ، أثبتت الآية الكريمة التنزيل صفةً للكتاب الذي هو كلام الله ، والمنزل من الله تعالى
لا يكون فيضاً من العقل الفعال على نفس النبي عليه السلام.^(٧٦)

المطلب السابع: تفضيل الملائكة على الأنبياء:

ذهب الفلاسفة ومنهم ابن سينا إلى تفضيل الملائكة على الأنبياء وإلى هذا الرأي ذهب المعتزلة وبعض
الأشاعرة.^(٧٧) واستدلّ الفلاسفة على مذهبهم بأدلة عقلية، منها:

- ١- الملائكة أرواح مجردة كمالاتها بالفعل، بخلف النفوس البشرية، والتام أكمل من غيره.
- ٢- الملائكة مطهرة من الشهوة والغضب، وهما مبدأ الأخلاق الذميمة، بخلاف الجسمانيات، فهي لا تخلو
منها.
- ٣- الملائكة بسائط، غير مركبة بأي نوع من التركيب، وأمّا الأنبياء فأجسام مركبة والبسائط أفضل من
المركبات.
- ٤- الملائكة نورانية علوية لطيفة، والأنبياء أجسام كثيفة مركبة من المادة والصورة، والمادة ظلمانية مانعة.

(٧٤) انظر: الصفدية ٢٠١/١ .

(٧٥) انظر: المصدر السابق ٢٠٤-٢٠٥ .

(٧٦) انظر: مجموع الفتاوى : ١٢٠/١٢ .

(٥٦) انظر مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن الأشعري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة
النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٦٩م ٢٩٦/١ . محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين : فخر الدين
الرازي، راجعه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة- ص ٣٢٢ . الموافق: عضد الدين الإيجي-
مصدر سابق- ص ٣٦٧ .

٥- الملائكة لها قوة وقدرة على تصريف الأعمال الشاقة، كالزلازل والسحاب ونحوها ولا يلحقها فتور وضعف، بخلاف الجسمانيات.

٦- الملائكة أفضل من جهة العلم والعمل، فمن جهة العلم: فلاحاطتها بالأمر الغائبة وإطلاعها على مستقبل الأحوال الجارية، ومن جهة العمل: فلكونهم عاكفين على العبادة، والتسبيح ليلاً ونهاراً، ولا يفترون عن ذلك. وعلوم الملائكة كلية فعلية آمنة من الغلط، وعلوم الأنبياء غير ذلك تماماً، فهي جزئية كسبية انفعالية، ولا تسلم من الغلط.

٧- الملائكة روحانيات متعلقة بالهياكل العلوية النورانية، والنفوس الإنسانية متعلقة بالأجسام السفلية الفاسدة، ونسبة النفوس كنسبة الأجساد. (٧٨)

المناقشة:-

يقول القرطبي: اختلف العلماء في التفضيل بين الملائكة وبنى آدم على قولين، فذهب قوم إلى أنّ الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. وذهب الآخرون إلى أنّ الملائكة أفضل... وقال بعض العلماء ولا طريق إلى القطع بأنّ الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأنّ الملائكة خير منهم، لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله أو إجماع الأمة، وليس ها هنا شيء من ذلك. (٧٩)

وأما الأدلة العقلية التي ذكرتها الفلاسفة مبنية على أصولهم الفلسفية التي لا يسلم بها أهل السنة والجماعة. (٨٠)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن هنا غلط من غلط في تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين، فإنهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين، ونقصهم فغلطوا، ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان، ورضى الرحمن، وزوال كل ما فيه نقص وملام، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام، حتى استقر بهم القرار والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، فإذا اعتبرت تلك الحال ظهر فضلها على غيرهم من المخلوقين، وإلا فهل يجوز لعاقل أن يعتبر حال أحدهم قبل الكمال في مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب". (٨١)

يقول علي ابن أبي العز الحنفي: " فإنّ الواجب علينا الإيمان بالملائكة والتّبيين، وليس علينا أن نعتقد أيّ الفريقين أفضل، فإن هذا لو كان من الواجبات، لبين لنا نصاً، وقد قال تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم) المائدة: ٣. (وما كان ربك نسياً) سورة مريم: ٦٤، وفي الصحيح -يقصد الحديث الصحيح- " إنّ الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة

(٧٨) انظر محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين-مصدر سابق- ص ٢٢١-٢٢٢. والمواقف للإيجي- مصدر سابق- ص ٣٦٨.

(٧٩) تفسير الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي- بتصرف-، دار الكتب المصرية- القاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م، ١/٢٨٩- ٢٩٠.

(٨٠) انظر المواقف -مصدر سابق- ٣٦٨.

(٨١) مجموع الفتاوي ٣٠٠/١٠، وانظر المصدر نفسه ٩٥/١١.

بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها ". فالسكوت عن الكلام في هذه المسألة نفيًا أو إثباتًا، والحالة هذه أولى. ولا يقال: إن هذه المسألة نظير غيرها من المسألة المستتبطة من الكتاب والسنة، لأن الأدلة هنا متكافئة".^(٨٢) ويضيف: " والأدلة في هذه المسألة من الجانبين إنما تدل على الفضل، لا على الأفضلية، ولا نزاع في ذلك..".^(٨٣) وفي موضع آخر يقول: " وحاصل الكلام: أن هذه من المسألة من فضول المسائل، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول، وتوقف أبو حنيفة رحمه الله في الجواب عنها".^(٨٤)

المطلب الثامن: أخبار الأنبياء :

زعم ابن سينا أن ما جاءت به الأنبياء نوعان، الأول: الأمور العلمية، ومنها معرفة الله بأسمائه وصفاته والمعاد. وهذه الأمور لم يذكر الأنبياء حقائقها، إنما أخبروا جمهور الناس بما يتخيلونه في ذلك لينتفعوا به في إقامة مصلحة دنياهم لا ليعرفوا الحق وهذا من جنس الكذب الجائر لمصلحة الناس، وهم يعلمون هذه المرتبة، فضربوا للناس الأمثال واستعملوا الرموز والإشارات.^(٨٥) يقول ابن سينا تحت عنوان: " في إثبات النبوة وكيفية دعوة النبي إلى الله والميعاد"،^(٨٦) "بل يجب أن يعرفهم جلاله الله تعالى وعظمته برموز وأمثلة، من الأشياء التي هي عندهم عظيمة وجليلة ويلقي إليهم منه هذا القدر، أعني أنه لا نظير له ولا شبه ولا شريك..". ويضيف: " وكذلك يجب أن يقرر عندهم أمر المعاد على أوجه يتصورون كفيته وتسكن إليه نفوسهم، ويضرب للسعادة والشقاوة أمثالا مما يفهمونه ويتصورونه، وأما الحق في ذلك فلا يلوح لهم منه إلا أمراً مجملاً... ولا بأس أن يشتمل خطابه على رموز وإشارات".

وفي رسالته "رسالة في إثبات النبوة وتأويل رموزهم"^(٨٧) يوجب ابن سينا على النبي أن يخاطب الناس بلغة الرموز الإيمانية، وأن يسلك التمثيل والتخييل في ذلك، تقريباً لإفهام العامة وترويضاً لعقولهم. وأما خاصة الناس فهم المعنيون بفهم الحقائق وتأويل الرموز وإدراك المعاني الباطنية التي وراء تلك الألفاظ التي استعملها الأنبياء. ومن ذلك قوله: " إن المشتراط على النبي أن يكون كلامه رمزاً وألفاظه إيماء". ولقد كان ابن سينا في ذلك متأثراً بالفلاسفة اليونان. وبخاصة أفلاطون. ولقد اعترف ابن سينا بذلك صراحة فقال: " وكما يذكر أفلاطون في كتابه النومايس أن من لم يقف على معاني رموز الرسل لم ينل الملكوت الإلهي، وكذلك جلة ابن سينا يونان وأنبياؤهم كانوا يستعملون في كتبهم المراميز والإشارات التي حشوا فيها أسرارهم كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون...".^(٨٨)

^(٨٢) شرح العقيدة الطحاوية: بن أبي العز الدمشقي الحنفي - مصدر سابق - ٢ / ٤١١ - ٤١٢.

^(٨٣) المصدر السابق ٢ / ٤١٣.

^(٨٤) المصدر السابق ٢ / ٤٢٣.

^(٨٥) انظر الأضحوية في المعاد: ابن سينا، تحقيق الدكتور حسن عاصي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ص ٩٧ - ١٠٣، الرد على المنطقيين - مصدر سابق - ص ٤٤٢، الصفدية -

مصدر سابق - ٢٠٢/١، درء تعارض العقل والنقل: أحمد عبد الحلیم بن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض - الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٧١ م، ١/ ٨ - ٩.

^(٨٦) في كتابه النجاة - مصدر سابق - ص ٣٤٠.

^(٨٧) مصدر سابق ص ١٢٤.

^(٨٨) في كتابه النجاة - مصدر سابق - ص ١٢٤ - ١٢٥.

وأما النوع الثاني : فهي الأمور العملية- يقصد الشرائع والطاعات والنواهي - فهذه أخبروا عنها ، ويجب طاعتهم فيها والعمل بشرائعهم.^(٨٩) وأنّ الأنبياء عليهم أن يعرفوا الناس العبادات التي تكون بها القربى من الله تعالى كالصلوات والصوم، وعليه أن يبين مصالح أخرى ومنافع دنيوية في تقوية السنة مثل الجهاد والحج، وأن يعين لهم أفعالاً يقدمونها خالصة لله كالذبائح ونحوها. ويجب أن يسن للصلاة سنناً لا بد من اتباعها، وهى استعدادات يجريها الإنسان لملاقاة ربه تعالى من الطهارة والنظافة، وقد جرت العادة أن يقوم بها عندما يقابل الرؤساء والملوك، ولا بد من الخشوع والسكون، وهذا يتحقق بغض البصر وقبض الأطراف، وترك الالتفات والاضطراب، وعلى النبي أن يسن للإنسان في كل وقت من أوقات العبادة آداباً ورسوماً محمودة.^(٩٠)

ونجد ابن سينا في أخبار الأنبياء العلمية (الاعتقادية) يسير على نفس منهجه من أنّ جمهور الناس يعلمون من الأمور ظواهرها، ويجب على عاميتهم اعتقاد الظاهر، والعمل به، كما جاء في الشرع وأما الخاصة- وهم ابن سينا ومن على نحوهم - فينظرون إلى بواطن الأمور لا إلى حقائقها، فالصلاة مثلاً - عند ابن سينا- تنقسم إلى ظاهر وباطن فالظاهر منها : الطهارة والنظافة، والخشوع والسكون، وترك الالتفات والاضطراب، مع القيام والركوع والسجود، وما فيها من سنن وآداب، والباطن منها: المشاهدة الربانية التي تتحقق بمشاهدة الحق بالقلب الصافي، والنفس المجردة المطهرة عن الأماني، فالمشاهدة عنده عقلية، والعبادة عنده هي المحبة الربانية والرؤية الروحانية.^(٩١)

المناقشة :

- إنّ هذه الأقوال التي ذهب إليها ابن سينا هي نفس ما ذهب إليه الملحدة الباطنية كالإسماعيلية من أمثال إخوان الصفا، وملحدة الصوفية كابن عربي وابن سبعين الذين يرون أن لكل ظاهر باطن وأنّ الأنبياء قصدوا تهيم الجمهور ظواهر الأمور، وإن كانت مخالفة للحق .

- إنّ اتهام الأنبياء بالكذب على الجمهور هو من المعلوم من الدين بالاضطرار بطلانه بل هو من الكفر الصريح ، فابن سينا وأمثاله لم يقدرُوا الله تعالى حق قدره، ولم يقدرُوا رسوله عليه السلام حق قدره، وفتحوا الباب على مصراعيه لكل الزنادقة والملحدة لإنكار كل ما جاءت به الأنبياء والمرسلون من العقائد والشرائع بحجة أنّ ظواهرها غير مرادة، وإنما وردت على سبيل التمثيل والتخييل .

- إنّ مراد ابن سينا من هذه الأقوال الفاسدة الصدّ عن سبيل الله ، والصدّ عن فهم مراد رسول الله ﷺ وتصديقه فيما أخبر به. ولقد أخبر الله تعالى عن رسوله ﷺ أنّه بلغّ البلاغ المبين وبين مراد الله تعالى، وفي أقوال ابن سينا قدح في بيان الله تعالى، وقدح في الرسول الذي بلغّ البلاغ الواضح المبين الذي هدى الله

^(٨٩) النجاة لابن سينا ص ٣٤١-٣٤٣ ، الرد على المنطقيين لابن تيمية ص ٤٤٢ .

^(٩٠) انظر النجاة ص ٣٤١-٣٤٢.

^(٩١) انظر النجاة ص ٣٤٢ ، رسالة في الصلاة: ابن سينا - ضمن جامع البدائل - مطبعة السعادة - القاهرة -

تعالى به العباد وأخرجهم به من الظلمات إلى النور، وفرّق الله به بين الحق والباطل، فأوضح به السبيل وأنار به الدليل. (٩٢)

- إن ابن سينا يتّلم بأنّ الرسل من أعلم الخلق بالحقائق ، وأنهم مخصوصون بقوة قدسية يعلمون بها ما لا يتمكن غيرهم من العلم به، وأنهم من أبر الناس وأصدقهم، وما نسبه إلى الرسل من إخبار جمهور الناس بضروب من التمثيل والتخييل والكذب لمصلحتهم يناقض ذلك، لذا كان ابن سينا من المتناقضين في أمر النبوات. (٩٣)

المطلب التاسع: خصائص النبوة :

ذهب ابن سينا إلى أن النبوة لها ثلاث خصائص، من قامت به فهو نبي، قال: "وأفضل الناس من استكملت نفسه عقلاً بالفعل، ومحصلاً للأخلاق التي تكون فضائل عملية، وأفضل هؤلاء هو المستعد لمرتبة النبوة، وهو الذي في قواه النفسانية خصائص ثلاث..وهو يسمع كلام الله ويرى ملائكة الله تعالى، وقد تحوّلت على صورة يراها..". (٩٤) والخصائص الثلاث التي يمتاز بها النبي عن غيره، هي:-

الأولى: أن تكون له قوة قدسية، وهي قوة الحُدس ، بحيث يحصل له من العلم بسهولة ما لا يحصل لغيره، وبالتالي يكون له اطلاع على المغيبات الماضية والحاضرة والمستقبلية، وهذا أمر لا يستتكر، فإن من صفت نفسه صفاءً شديداً، وقويت قوة عظيمة بحيث لا تشغلها الحواس عن النظر إلى العالم العقلي فإنّه عند ذلك تستعد استعداداً خاصاً للاتصال بالعقول المفارقة-ومنها العقل الفعّال- بأدنى توجه، ويفيض عليها من علم الغيب ما لا يدرك بالفكر والقياس.

الثانية : قوة التخيل والحسّ الباطن: وهي التي يتخيّل بها في نفسه ما يعلمه، بحيث يتمثل له ما يعلمه في نفسه فيراه ويسمعه فيرى في نفسه صوراً نورانية هي عند ابن سينا ملائكة الله، ويسمع في نفسه أصواتاً هي عندهم كلام الله، وهذا بأن تقوى نفس النبي وتتصل في اليقظة بعالم الغيب، وتحاكي المتخيلة ما أدركته النفس بصورة جميلة وأصوات منظومة، فترى في اليقظة وتسمع. وليس هذا بمستتكر أيضاً فإنّه يحصل له في يقظته مثل ما يحصل للنائم في منامه، فالنائم يرى في نومه صوراً تكلمه، ويسمع كلامهم، وذلك موجود في نفسه لا في الخارج، وهذا من جنس ما يحصل لبعض أهل الرياضة من الصوفية، فإنّ من تجرّدت نفسه عن الشواغل البدنية سهل عليها أن تنجذب إلى عالم القدس.

الثالثة : قوة نفسانية يتصرف بها في هيولي- مادة- العالم، وذلك بإحداث أمور غريبة، وهي عنده آيات الأنبياء ومعجزاتهم. فالنبي بذلك تظهر منه من الخوارق للعادة لأنّ هيولي عالم العناصر مطيعة له ومنقادة لتصرفاته مثل انقياد بدنه لنفسه ، تماماً كالعائن - الذي يصيب الآخرين بعينه - فإنّ له قوة نفسانية يؤثر بها في المعين، وإذا كان أمر النبي كذلك، فلا يبعد أن تقوى نفس النبي حتى تحدث بإرادته في الأرض رياح وزلازل، وكأن يزيل جبل عن مكانه، ويذيب جوهرًا فيستحيل ماءً، ويجمد جسمًا سائلًا ليستحيل حجرًا،

(٩٢) انظر درة تعارض العقل والنقل - مصدر سابق - ١٠/١ - ١١، ١٩-٢٤ .

(٩٣) الصدفية ١/٢٠٣ .

(٩٤) النجاة - مصدر سابق - ص ٣٣٤ .

وغيرها من الأمور الخارقة للعادة، وهذا أيضاً ليس بمستكر، فأهل الرياضة من الصوفية ونحوهم تحدث منهم أمور عجيبة.^(٩٥)

المناقشة :

أولاً : مناقشة ما ذكره في الخاصية الأولى :

- إنَّ الاطلاع على جميع المغيبات لا يجب للنبي، وهذا هو اعتقاد جميع المسلمين، يقول الله تعالى حاكياً قول رسول الله عن نفسه : ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ الأعراف: ١٨٨ .

- إنَّ الاطلاع على بعض الغيب لا يخصَّ النبي فقط، فابن سينا يقول: إنَّ أهل الرياضة والمرضى والنائمين يحصل لهم ذلك ، فأى ميزة وخاصية للنبي إذاً على غيره من آحاد الناس.^(٩٦)

- إنَّ النبي عليه السلام لا يعلم الغيب من تلقاء نفسه، ولا باستعداد ذاتي، بل يعلم الغيب بواسطة أمين الوحي جبريل الذي يعلمه ما يأذن به الله عز وجل، وليس للقوة القدسية التي جعلها ابن سينا خاصية للنبي علاقة بذلك. يقول الله تعالى في حق نبيه محمد ﷺ : ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ آل عمران: ٤٤ ويقول: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ الجن: ٢٦-٢٧ .

ثانياً : مناقشة ما ذكره في الخاصية الثانية:

* إنَّ ما قاله ابن سينا في شأن الملائكة لا يتمشى مع مذهبه الفلسفي العام واعتقاده في الملائكة فالملائكة عنده: إما نفوس مجردة عن المادة في ذاتها، متعلقة بأجرام الأفلاك ويسمونها ملائكة سماوية وإما عقول مجردة ذاتاً وفعلاً، وتسمى بالملا الأعلى، وليس لها كلام يسمع، لأنَّ الكلام عندهم من خواص الأجسام. يقول الإيجي في الرد على الفلاسفة ومنهم ابن سينا: " قلنا: هذا تلبيس وتستر بعبارة لا يقولون بمعناها، لأنهم لا يقولون بملائكة يرون، بل الملائكة عندهم نفوس مجردة، ولا كلام لهم يسمع، لأنه من خواص الأجسام، ومآله إلى تخيل ما لا وجود له في الحقيقة، كما للمرضى والمجانين، على ما صرحوا".^(٩٧)

* إنَّ الأدلة على وجود الملائكة كثيرة جداً، فنصوص الكتاب والسنة في هذا الجانب متواترة وهي تصرح بما لا يدع مجالاً للإنكار: بأن الملائكة تجيء في صورة البشر، كما جاءت مريم وإبراهيم ولوط عليهم السلام، وتكليمهم للأنبياء إياهم وسماعهم كلامهم ورؤيتهم لهم على وجه الحقيقة، وكما حصل لنبينا محمد ﷺ ، بل وظهر جبريل حقيقة على صورة الصحابي دحية الكلبي، وقد رآه غير واحد من الصحابة واستمعوا إليه ، ثم إنَّ أخبار نزول الملائكة لنصرة الأنبياء والأولياء وتأبيدهم، وإخبار الله تعالى عنهم بأنهم عباد الله

^(٩٥) انظر هذه الخصائص: الإشارات والتنبيهات- مصدر سابق- ٨٧١/٤ ، ٨٩٩-٩٠١ ، النجاة - مصدر سابق-

ص ٣٣٤-٣٣٥، الملل والنحل للشهرستاني- مصدر سابق- ٧٤/٣-٧٥، المواقف - مصدر سابق- ص ٣٣٧

، ٣٣٨ الصغدية- مصدر سابق- ٧-٥/١، مجموع الفتاوى لابن تيمية- مصدر سابق- ٢٢٩/١١

، ٣٥٤/١٢، درء التعارض لابن تيمية- مصدر سابق- ٣٥٥/٥-٣٥٦..

^(٩٦) انظر المواقف- مصدر سابق- ص ٣٣٧.

^(٩٧) المصدر السابق ص ٣٣٨.

المكرمون وأنهم يسارعون في الخيرات، ولا يستكبرون عن عبادته، وأنهم يحملون عرش الله عز وجل ، ومنهم خزنة الجنة وخزنة النار، وما في القرآن والسنة من ذكر أوصافهم وهيئاتهم وأصنافهم وأعمالهم كله صريح في بيان تهافت أقوال ابن سينا التي تلقاها عن أسلافه من الفلاسفة الوثنيين.^(٩٨)

* إن أقواله تتضمن تكديماً صريحاً للقرآن الكريم، وهذا من الكفر القبيح، فضلاً عن مخالفته مما يعلم بالاضطرار من دين المرسلين.^(٩٩)

* إنَّ عامة الأمم وأهل الأديان يعترفون بوجود الأرواح الموجودة المنفصلة عن الآدميين من الملائكة والجن، والملائكة التي يثبتها الفلاسفة ويسمونها بالعقول فهي عند التحقيق لا توجد إلا في أذهان من أثبتها لا وجود لها في الأعيان.^(١٠٠)

* إنَّ زعمه بأن النبي ﷺ يخيل له أنه يسمع في نفسه أصواتاً هي كلام الله، فباطل من عدة وجوه، منها:-
أ- إنَّ قوله معناه إنكار الملائكة التي يسمع منها الرسول ، فالله عز وجل يرسل أمين الوحي جبريل إلى أنبيائه يوحي إليهم بإذن ربه ما يشاء، قال تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ الشورى : ٥١، ففرق الله سبحانه بين إرسال الرسول الذي يوحي بإذنه ما يشاء وبين الوحي، كما فرق بين ذلك وبين التكلم في قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعد﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وكلّم الله موسى تكليماً﴾ النساء: ١٦٣-١٦٤. ففرق بين الإيحاء العام المشترك بين الأنبياء وتكليمه لموسى عليه السلام ، كما فرق بين الإيحاء وبين إرسال رسول يوحي بإذنه ما يشاء .

ب- إنَّ ابن سينا يثبت فقط ما هو من جنس الوحي والإلهام عندما يقول بالقوة القدسية التي تفيض على نفس النبي، بل الوحي والإلهام الذي أثبتته الله تعالى فوق القوة القدسية التي يثبتها، والرسل لهم أحوال في السماع خارجة عن قوى النفس، وعن جنس الإيحاء العام والإلهام المشترك، إذ يسمعون كلام الملك المرسل إليهم، وتدل عليه آية الشورى السابقة، وقوله تعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ الحج : ١٧٥.

ج- لقد أخبر الله تعالى أنه يكلم البشر من وراء حجاب، وأن يكلم موسى عليه السلام تكليماً، وهذا يقتضي أنه يكلم بعض رسله تكليماً خارجاً عن جنس ما يحصل بالوحي والإلهام مما يتناول القوة القدسية وغيرها.^(١٠١)

د- يقول الله تعالى في قصة مريم: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ سورة مريم: ١٧-١٩. وقال تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ سورة التحريم: ١٢.

^(٩٨) انظر هذه الردود بالتفصيل : الرد على المنطقيين لابن تيمية ٤٩٠-٥٠٠ .

^(٩٩) انظر الصفدية- مصدر سابق- ٢٣١/١ .

^(١٠٠) انظر المصدر السابق ٢٤١/١ .

^(١٠١) المصدر السابق - بتصرف يسير - ٢٠٣/١-٢٠٥ .

لقد أخبر الله تعالى أنّ هذه الروح تصوّر بصورة بشر سوي، وخاطب مريم ونفخ فيها، ومن المعلوم أنّ القوى النفسانية التي تكون في نفس النبي وغير النبي لا يراها الحاضرون، ولا تحدث منها مثل هذه الأحوال والأفعال والأقوال ، وعلى هذا يبطل قول ابن سينا أنّ النبي يخيل إليه أنّه يسمع في نفسه أصواتاً هي كلام الله، فكون الملك تمثل بشراً وخاطب مريم ، فأبي عاقل يقول أن مريم سمعت كلامه من داخل نفسها وهو أمامها بشري سوي تراه وتسمع كلامه(١٠٢) .

هـ- يقول تعالى في حق جبريل عليه السلام : (إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم) سورة التكويد: ١٩-٢٥. أخبر الله تعالى أن الذي جاء بالقرآن - وهو من كلام رب العالمين - رسول كريم ، ذو قوة عند ذي العرش مكين ، وأنه مطاع ثم أمين. ومن المعلوم امتناع أن تكون هذه الأوصاف للملك الرسول صفات أعراض تقوم بنفس البشر سواء كان نبياً أو غيره ، وما كان كذلك امتنع أن يكون النبي قد تخيل في نفسه أنه رآه وسمع منه كلام الله تعالى .

و- إذا كان النبي لم يسمع كلاماً من خارج نفسه بل هذا تخيل في نفسه كما زعم ابن سينا فهذا معناه أنّ الرسول من جنس آحاد المسلمين الذين يرون في المنام أنهم في السماوات، وأن الملائكة خاطبتهم ونحو ذلك ، ومثل هذا لا تكذب به قریش ولا أحد من الكفار .

ز- وإذا كان ابن سينا يزعم أن كلام الله هو ما يفيض على نفس النبي من العقل الفعّال فإن هذا الزعم باطل وبيان ذلك : أن العقل الفعّال لا يمكن أن يتصور في صورة أعرابي ولا دحية الكلبي ولا ضيف إبراهيم ولا لوط ، ولا في صورة بشر سوي فنفس في مريم ، ولا يمكن أن يكون كما قال تعالى : ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ لأن غاية العقل الفعّال عند الابن سينا أن يتحرك الفلك الأسفل تشبهاً به وأما فوق ذلك فلا تأثير له فيه .

وأيضاً فلقد أخبر الله تعالى أن النبي عليه السلام رآه عند سدره المنتهى ورآه بالأفق المبين مرتين، وجاء في الحديث الصحيح أنّ النبي عليه الصلاة والسلام رأى جبريل في صورته التي خلق عليها مرتين وله ستمائة جناح منها جناحان سد بهما ما بين المشرق والمغرب، ومن كانت هذه أوصافه وأحواله استحال أن يكون هو العقل الفعّال كما يزعم ابن سينا.(١٠٣)

ثالثاً : مناقشة ما زعمه من أن معجزات الأنبياء هي نتيجة تأثيره القوة النفسانية للنبي:

إنّ كون بعض النفوس أو غيرها من الأعيان قد جعل الله تعالى فيها من القوى والطبائع ما يحصل به بعض الآثار لا ينكر شرعاً ولا عقلاً، ولكن دعوى ابن سينا بأنّ معجزات الأنبياء هي من هذا الباب فبهتان عظيم وإفك أثيم . وأدلة بطلانه كثيرة جداً نذكر هنا بعضاً منها يفي بالغرض المطلوب :-

* إنّ المؤثر الوحيد في الوجود هو: الله تعالى الذي لا شريك له في ملكه وتدبيره وتصريفه لما في ملكه ولم يثبت شرعاً ولو بدليل ضعيف هذا الكلام الذي زعمه ابن سينا، ثمّ إنّ المعجزات وخوارق العادات هي:

(١٠٢) انظر المصدر السابق ١٩٧/١-١٩٨ .

(١٠٣) انظر المصدر السابق ٢٠١/١ .

كرامات يظهرها الله تعالى على يد النبي برهاناً على نبوته وتصديقاً لما جاء به من ربه عز وجل ولو كانت من تأثير نفسه كما زعم ابن سينا لما كانت معجزة يتحدى بها الأولين والآخرين من الجن والإنس .

* لقد أثبتت نصوص القرآن صراحة أن الملائكة لها تأثير في العالم بالقول والفعل ولكن بإذن الله تعالى وبمشيئته وقدرته، ومن ذلك تأييدها للأنبياء بالنصر والتأييد وإنزال السكينة، وهذا يبطل قول ابن سينا أن المؤثر في العالم هو القوى النفسانية أو القوى الطبيعية ، فإن الملائكة خارجة عن هذا وهذا .

* إن ابن سينا لم يدل على مزاعمه بدليل صحيح، فقوله بلا علم ولا دليل، وعامة ما يعتمد عليه التجويز الذهني، والعقائد والمغيبات لا تثبت بمثل ذلك، ولا ريب أن معجزات الأنبياء مما أجمع الناس على أن قوى النفوس لا تقتضيها، فالناس يعلمون بالمشاهدة والأخبار المتواترة والدلائل اليقينية حدوث خوارق للعادات كثيرة، ليس لها علاقة بنفوس بني آدم، لا نفوس أنبياء ولا غيرهم، كزلزلة الأرض ونزول المطر من السماء، وأخذ القرى الظالمة .

* إن تأثير النفوس في الأجسام لا يختص بالنبي، فمثلاً الجن تفعل كثيراً من الغرائب والأعاجيب ، ومن ذلك حملها لبعض الناس وطيرانها بهم في الهواء، وسرقة أنواع من الأطعمة وإتيانها بها للكهنة وإخبارهم بالأمور الغائبة. وهذا ما يعلمه كثير من الناس والجن ليست قوى نفسانية، فمن الناس من شاهدها، ورأها - أحياء ناطقين منفصلين عن الإنسان - ، أو ثبت ذلك عنده بالأخبار الصادقة .

* إن الملائكة ثابتة آثارهم وأفعالهم في العالم، وأخبارهم في ذلك متواترة عند أتباع الأنبياء ، ومعلومة بالمعاينة والمشاهدة ، وهذا من أعظم الأدلة على بطلان دعوى أن المعجزات والكرامات والسحر هي قوى نفسانية .

* إن تأثير قوى النفس لا يبلغ مبلغ معجزات الأنبياء ، فإنزال ماء الطوفان الذي أغرق أهل الأرض وإرسال الريح العقيم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً التي أهلكت قوم عاد واقتلعت قرى قوم لوط وقلبتها حتى أهلكتهم، وإرسال الطير الأبابيل بحجارة من سجيل لهلاك أبرهة الحبشي وأصحابه عام الفيل وإنزال المن والسلوى على بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام، وخلق البحر، وتفجر الماء كل يوم من الحجر اثنتي عشر عيناً، وانشقاق القمر، واهتزاز العرش، وخروج الناقة العظيمة من الصخرة وإنزال المائدة من السماء، لا يمكن أن يقول عاقل أن هذه وأمثالها من تأثيرات القوى النفسانية عند الأنبياء، بل كل عاقل يعلم أنها من فعل فاعل مختار يفعل بمشيئته وقدرته، وبحسب مشيئته وحكمته، وأنه هو الله رب السماوات والأرض، ورب كل شيء ومليكه .

* إن الأنبياء عليهم السلام قد أخبروا بأن خوارق العادات - المعجزات المؤيدة لدعوى النبوة - ليست في مقدور البشر، فمن زعم أنها من تأثير قوى النفس كان مكذباً للأنبياء فيما أخبروا به، والأنبياء عليهم السلام أخبروا بوجود الملائكة والجن، وأنها أحياء ناطقة قائمة بأنفسها ليست أعراضاً قائمة بغيرها وأخبروا بأنهم يفعلون أفعالاً خارجة عن قدرة البشر، ومن ذلك مجيء الملائكة إبراهيم عليه السلام في صورة رجال نكرهم ولم يعرفهم حتى ظن أنهم ضيوف، ثم إخبارهم له بأنهم ملائكة وبشروه بإسحاق ثم أخبروه بأنهم ذاهبون إلى قوم لوط من أجل إهلاكهم بأمر الله تعالى. ومن زعم أن مثل هذا من قوى النفس فقد كذب القرآن الكريم وكذب الأنبياء فيما أخبروه به، وهذا في غاية الكفر الصريح والعياذ بالله تعالى.

ومن معجزات الأنبياء ما لا يكون النبي شاعراً به، ومنها ما لا يكون مريداً له، وهذا لا يكون من فعل نفسه، ومنها ما يكون قبل وجوده، ووجود قدرته، ومنها ما يكون بعد موته ومفارقته لهذا العالم. ومن المعلوم أن أمثال هذه المعجزات خارجة عن مزاعم ابن سينا في تأثير القوة النفسانية للنبي. ومن هذه المعجزات : قصة أصحاب الفيل التي حدثت حين مولده ﷺ، وأخبار الكهان وأهل الكتاب عن نبوته وإخبار الأنبياء السابقين المتقدمين عن نبوته ورسالته، وانتشار دعوته عليه الصلاة والسلام في مشارق الأرض ومغاربها كما أخبر هو عن ذلك، وحفظ الله تعالى للكتاب الذي أنزله عليه، وما جعله الله تعالى في القلوب من محبته وتعظيمه، والعلم بمنزلته وعلو درجته ومكانته، وانتصار أوليائه، وهزيمة أعدائه. (١٠٤)

(١٠٤) انظر هذه المناقشة لمزاعم ابن سينا مع زيادة تفصيل في كتاب الصغدية لابن تيمية ١/١٦٣-٢٣٦ .

الخاتمة

* من خلال دراسة قضايا النبوة عند ابن سينا تبين لنا أنّ ابن سينا صار على منهجه في التوفيق بين الفلسفة والدين، ولكنه كان متمسكاً بالفلسفة تمسكاً يزيد على تمسكه بالدين، وهو يعبر عن قوة منزلتها في نفسه، ولذا نجده يضحى بالمبدأ الديني، ويحرّف النصوص الشرعية، مع محافظته على ما تلقفه من الفلاسفة اليونان، ومن أمثلة ذلك: إقحامه نظرية الفيض التي قال بها أفلوطين في موضوع الوحي وكلام الله تعالى، وتعريفه للرسالة والرسول، وكيفية تلقي الأنبياء الخبر من الله عز وجل، وعلاقة ذلك بالعقل الفعّال، أحد العقول العشرة التي تحدّثت عنها نظرية الفيض.

* أنّ ابن سينا ينكر صفة الكلام الثابتة لله بالكتاب والسنة، وينكر أنّ الله يكلم أنبياءه بكلام حقيقي، وأنّ النّبي يسمع كلام الله حقيقة من الملك جبريل، وأنه يراه حقيقة، فالوحي عند ابن سينا يرجع إلى قوة التخيل عند النّبي، وبها يستطيع النّبي أن يشكل الصور العقلية- التي هي الملائكة عند الفلاسفة- في صورة المحسوس، وأنّ النّبي يسمع كلام الله من سماء عقله ثم يحيله إلى ألفاظ وعبارات يسمعا لغيره.

* أنّ ابن سينا أحسن في بيان الحاجة إلى النبوة، وأنها ضرورية، وأنّ وجود النّبي أكثر حاجة من وجود كثير من المنافع الدنيوية، وأنّه لولا النبوة لما كان هناك بقاء للنوع الإنساني.

* من الأغاليط المنكرة التي وقع فيها ابن سينا زعمه كغيره من الفلاسفة أنّ النبوة مكتسبة، وتنال بالرياضة الصوفية، وقد ذهب أهل العلم بتكفير من زعم أنّ النبوة مكتسبة.

* ومن الأغاليط أيضاً الزعم بأنّ العمدة في إثبات النبوات: المنامات، بقياس ما يوحى إلى النّبي بما يراه الإنسان في نومه، مع أنّ الأدلة التي تثبت بها النبوة أعظم من ذلك وأكثر، وقد أشارت النصوص الشرعية إلى بعضها، وذكر أهل العلم كثيراً من الأدلة النقلية والعقلية وليست الأحلام والمنامات واحداً منها.

* لقد قال ابن سينا منكرًا من القول وزوراً عندما زعم أنّ الأنبياء سلكوا طريق التمثيل والتخييل، وأنّه يجب عليهم استعمال الرموز والإشارات، في تفهيم جمهور الناس خطاب الشارع المتعلق بالعقائد، وأنّ الظاهر من النصوص الشرعية غير مرادة، وليست مطلوبة لذاتها. وفي هذا اتهام للأنبياء بالكذب، وأنهم لم يبلغوا البلاغ المبين، بل في ذلك قدح في بيان الله تعالى، الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين، يفهمه جمهور الناس فضلاً عن علمائهم، وقد فتح ابن سينا وإخوانه الفلاسفة الباب للزنادقة والملحدّين، كي يقولوا عن كل عقيدة لا تستسيغها عقولهم أنها غير مرادة بحسب ظواهرها، إذ الظاهر رموز وإشارات وأنّ الأنبياء ذكروها على سبيل التمثيل والتخييل.

* لقد زعم ابن سينا أنّ النبوة لها ثلاث خصائص، وأنّ من وجدت فيه كان نبياً، وهي القوة القدسية والقوة النفسانية، وقوة التخيل، وقد ذكر في تفسيره لكل منها كلاماً طويلاً، يتفق وأصوله الفلسفية ومنهجه الفلسفي، المتأثر فيه إلى حد بعيد بالفلسفة اليونانية ونظرياتها الخيالية، ومنها نظرية الفيض، وقد بين علماء الإسلام فسادها، وفساد ما يلزم عنها. وأنها مناقضة للعقائد الدينية، وتؤدي إلى إنكار المعلوم من الدين بالضرورة، من وحي الله إلى أنبيائه، والمعجزات والملائكة والجن، والمعاد وما فيه من نشر وحشر وحساب، والصرط

والميزان، وما أعدّه الله تعالى لعباده من ألوان النعيم المادّي، وما أعدّه لأهل الكفر والعصيان من العذاب المادّي المحسوس. وأنّ هذا من الكفر القبيح التي جرته الفلسفة على أصحابها.

* إنّ كثيراً ممّا دونه ابن سينا في باب النبوات - غيرها - ليس فيه ما يروي غليلاً ولا يشفي غليلاً، ولا يكسب القلب إيماناً و يقيناً، بل يعمل على إضعاف سلطان العقيدة على القلوب، وإزالة قدسيّتها من النفوس.